

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

العدد: ٢٤ / السنة السادسة / (مايو - يونيو) ٢٠١١ www.hiramagazine.com مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

أسرار القدر

يا يد القدر، أزيحي الأستار،

واكشفي عن الأنوار، والربيع الْمَوَّار..

والعطرُ الفَوَّاح، يملأ المكان، ويعطّر الزمان..

وإذا بنا أحاسيس مرهفة، وأشواق مترعة..

إنها الْتفاتات المنْعم السَّتَّار..

فيا لها من ألطاف، بضوئها أدركنا،

كم كنا عنها محجوبين، وعن حضورها غائبين..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٢٤
السنة السادسة
(مايو – يونيو) ٢٠١١

الرؤية المعرفية

في الجزء الثاني من مقاله القيم "نظرة إجمالية إلى الإسلام" يركز الأستاذ "فتح الله كولن" على أحد أعمدة فكره الذي كثيرًا ما يعود إليه في كتاباته مستلهمًا ومذكرًا، ألا وهو دعوة المسلمين إلى العودة إلى أنفسهم، والبقاء بذاتهم، والاغتذاء من مصادرهم بأقصى قدراتهم، وهذا المصدر هو القرآن الكريم والسنة المطهرة، فيلزم المسلم التمسك بقيمه الذاتية كما يقول، لكي يستطيع الخروج من أعماق الظلام روحًا سامية، وينهض من كآبات الإحباط إلى علياء البهجة والسرور متطهرًا مما يحف به من مضللات، ومتخلصًا من اليأس الذي يتردّى به بذل نفسه وقهر روحه.

ويطل علينا فضيلة الدكتور "البوطي" وكأنه يثنّي على مقولة الأستاذ "كولن"، ويدعمها فيشير إلى إجماع الأمة على وجوب الاتباع وتجنب الابتداع، ثم يتساءل: "إذا كان الأمر هكذا ففيم تسرب الخلاف بينهم حتى تحولوا إلى مذاهب وفرق شتى؟ وكيف لم يتأت لهذا الجامع المشترك أن يجذبهم إلى صراط واحد وكلمة سواء"؟

ثم يأتي الدكتور عماد الدين خليل في مقاله المبدع "مرئيات في الجمالية الإسلامية" فيقول: "إن الله تعالى هو البدء والمنتهى، وهو الظاهر والباطن، وإليه -على تغاير الأحوال والمجريات والحركات- يرجع الأمر كله، وفي هذا ما يفتح للجمالية الإسلامية ساحة ليست كالساحات، ومدى في الزمان والمكان ليس كالأمداء".

أما الدكتور "عمار جيدل" فإنه يركز على ضرورة أنْ تشيع في المسلمين ثقافة "السننية"، فهذه الثقافة قمينة بصناعة المستقبل على أسس وطيدة، ويقول في توضيح ذلك: "الحديث عن الثقافة السننية حديث عن القوانين التي تحكم سير الإنسان والكون بشقيه المادي والمعنوي، وهي دعوة لاكتشافها والإفادة منها في مختلف مجالات الحياة".

ويأتي الدكتور "عبد السلام الراغب" ناعيًا "الجمود الفكري" فيقول: "إن العقل يقوم بدور فعال في إنتاج الثقافة أو فهم الواقع من خلال إبداء الرأي وتقديم رأي مفسر أو داعم لدلالات الثقافة أو رموز الواقع".

وفي مقاله القيم "الرؤية المعرفية" يقول الدكتور "سمير بودينار": "تستند الرؤية المعرفية لجوهر الحقيقة عند الأستاذ "كولن" على مصدرين أساسيين أولهما: القراءة الدائبة للوجود والسعي إلى تعرفه واستكناه جوهره، وثانيهما: العقل المسدّد بعناصر التوجيه الكامنة في أعماق الإنسان والمتجلية في استجابات الروح لنداء الوحي".

وبعد، فنأمل أن نكون قد مررنا على أهم موضوعات هذا العدد وعلى كتّابه، بقدر ما تسمح به هذه الصفحة من "حراء"، فألمحنا وأشرنا وأومأنا، وتركنا للقارىء الكريم فرصة الإلمام بتفصيلات ذلك من خلال قراءاته.




المحتويات


حراء
www.hiramagazine.com

فتح الله كولن

نظرة إجمالية إلى الإسلام-٢

إن الأديان كلها ركزت على أصول وأسس معينة واحدة، وأكدت على حقائقَ بعينها. ومن حيث الضوابط الأصلية -وبالتناسب مع أحوال الزمان وحاجاته- كلُّ نبـي بعثـه الله تعالـى، قام بدور الامتداد لمن سـبقه والمكمّـل والمتمم له، وصَدَّق رسـالةَ السـابق أو السـابقين، وكمَّلها حسـب الأحوال والشـرائط، وبسَـط للأمور التي تتطلـب التفصيـل، وجدد المسـائل المحتاجة إلى تجديد، وفي الأحـوال كلها أكد على الأمور الأصيلة بعينها؛ فالتوحيد والنبوة والبعث والنشـور والعبادة هي المسـائل المقدَّمة العزيزة لكل نبـي... فهـي الزبدة في دعـوة الأنبياء والمرسـلين أجمعين، مـع التنوع في الأسـلوب والتعبير والبيان والأداء. أما الفروق في الديانات أو الإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، والوضوح والخفاء وأمثالها في المسـائل المختلفة، فتتعلق بأفق إدراك البشـرية وتَحَضُّرِها وتطورها. فقد شـرَّع الحـق تعالى لـكل أمة أوامرَ وقوانين خاصة تتعلق بالفروع حسـب مبلـغ علم تلك الأمة وإحاطتها، ونوعِ معضلاتها وحاجاتها، ووضَّح -مجدَّدًا- الأسسَ التكوينية والضوابط التشريعية حسـب إدراك المخاطَبين، وبيَّن تَنَزُّلاته الكلامية بتنوعاتها المتعددة ببعدِ تجلٍّ مختلف في كل مرحلة. فتوالى التنوع والتجديد في أمورٍ مثلِ تفصيل المجمل وإطلاق المقيد وتعميم الخاص وتوضيح المبهم، مع أن محور المضمون والمنطوق واحد وثابت. فكم من المسائل هي كافية للمبتدئ والبدوي، تستدعي تفصيلا أكثر للمنتهي والحضري.

فهنا نشـهد تبدلاً دائمًا في المسـائل التبعية الثانوية في رسـالات الأنبياء والرسـل ابتداءً من أولهم إلى خاتمهم، بالصورة المبينة آنفًا، لكن هذا التبدل لم يمس أبدًا روحَ الرسـالة الأصل، ولـم يغـادر حـدود التفرعات. أما التفـرق والاختلاف والصـراع والحروب الناشئة منهما بين أتباع الأديان السـماوية، فليس مردها إلى الدين والتدين، بل إلى تفسـيرات خاطئة كان يسـوقها

المبتدئـون من أتبـاع الأديـان الذين لم يحافظـوا علـى أصـل الرسـالة الإلهيـة وتربـوا علـى الانجـراف وراء المصالح والحقد والبغـض والانحراف والأهواء والنـزوات... ولا زالت القضية كذلك. فمن أجل ألا تقع أنواع التنازع والتفرق كما وقـع أمس، ولكي نلم الشـعث إن كان قد وقع اليوم، يجب القبول بالإيمان وبالإسـلام وفاقًـا للأصـول والأسـس التـي وضعها الله تعالـى، وجعْلُها جزءًا لا يتجـزأ مـن طبعنـا وجِبِلّتنـا. ولكـن الحاجـة ماسـة إلـى "العمـل الصالـح" لكـي يثمر هذا الإيمانُ ويبـدي قوتَه... بعبـارة أخرى: حتى يسـبغ الحياةَ على

> **علينا نحن المسـلمين أن نَعود إلى أنفسنا وقيمنا، ونعزم على البقاء بذاتنـا، ونتغـذى من مصـادرنا بأقصـى قدراتنـا. وإن مصـدر الديـن الإسـلامي ومنبعـه هـو القرآن والسـنة، فهـو فائض من صـدرهما. وقد أحـرزت الأمة الإسـلامية موقعًـا تُغبـط عليـه، وصـارت قـدوة للأمم مـا دامت متمسـكة بهـذا النظـام الإلهي.**

الوجدان؛ فبقدر إسناد الإيمان بالعمل الصالح وإمداد المؤمن بالعبادة، يقترب إلى الله تعالى، ويظل محافظا على هذا القرب واكتسـابِ رضـاه. وإلاَّ، فالإيمـان الذي لم يُمَـدَّ بالعبادة ولم يُسـنَد بها، لن يبـدي قوته تمامًا، وكذلـك المؤمن الذي ليس له عبودية لن يسـتطيع الثبات منتصبًّا على سـاقيه أمدًا طويلا. ولذلـك ما برح القـرآن الكريم يُتبع الإيمـان بالعمل الصالح ويُذكِّـرُ بظاهر "العمل بـالأركان" مع باطن "التصديق بالقلب" الذي هو الركن الأساس، ولا يفتأ ينبه إلى الحزم في مناسباتنا الداخليـة والخارجية، الباطنة والظاهرة... إذ الإيمان أسـاس وحيد للعمل، والعملُ سُور للإيمان وصونٌ وشاهد وضمان له.

السعي السنني

إن التصرفات الحسـنة غير المسـتمدة من الإيمان هي أعمال توافقـت مـع الصواب لا يُحتَمَـل دوامها وتماديهـا بتاتًا، ولا تُمنِّـي بمسـتقبل واعـدٍ البتـة. والإيمـانُ من غير عمـل إيمانٌ غيـر مسـنود قد يَعرِض عليـه التصدعُ والانهيـار، ولا يُحتَمَل انفسـاحُه وتوسـعُه، وتقليدٌ بـارد عبارة عن مقبـولات نظرية. أما الإسـلام الذي نسـميه "الدين الحق"، فهو العنوان المبجَّل للعمل بكل المسؤوليات والتكاليف التي جاء بها القرآن، إلى جانـب الإيمـان القلبي الصـادق بمجموع الأصـول والفروع لهاتين الحقيقتين.

فالإسـلام بهذا الفهم هو المصدر الفريد الوحيد لسـعادة الإنسـان القلبيـةِ والروحيـة، والماديـة والمعنويـة، والدنيوية والأخرويـة. غيـر أن الاسـتفادة مـن مصدر كهذا على الوجه الأتم قد نيطت بالاسـتخدام الأمثل للأجهـزة الظاهرية والباطنيـة الموهوبـة للإنسـان بالفطرة. فالذيـن يسـتخدمون مواهبهـم الأوليـة كأجهـزةِ اسـتقبالٍ للـواردات الثانيـة، يبدأون أعمالهم بالمحاسـن والألطاف، ويقضونهـا بالمحاسـن والألطـاف فـي الأجواء الزرقـاء لـ"الدوائر الصالحة"،[1] ويُفلحون بإنجازِ أعمالٍ تُنبئ عن مدارجِ الأبديـة فـي كل آن ولمحةِ بصـرٍ مـن حياتهم.

ومـا برح الإسـلام مصدرَ عـزٍ وقوة لأتْباعِـه الذيـن يؤمنـون بـه ويَحيَونـه بصدق، وقد أسـعدهم بقدرِ صدقِ انتسابهم، ولم يُوقِعْهم قط في خذلانٍ دائم أو متمادٍ. فمنذ عهد الصحابة وحتى اليوم كَمْ عشنا بفضله في فترات مختلفة عصورًا ذهبية وأقمنا حضارات زاهية؛ وبالمقابل في مراحل الشـؤم التـي وَلَّينا الدينَ ظهورَنا وقطعنـا علاقته عـن الحياة، توالـت علينـا النكبات وضجت الجموع عويلاً في الانكسارات، وانقصم ظهر المجتمع حتى عجز عن القيام. ولكنْ -حتى في تلك المراحل- هناك الكثير ممـن ظَـلَّ مؤمنًـا بالدين وقوتـه، غير أنهم حدَّقـوا بأبصارهم فـي أفق الجدود والحظوات الخارقة، وقاموا وقعدوا حالمين بعنايةِ الكرامات الخارقة، وغضوا البصر عن العادات والسنن الإلهيـة. ومعلـوم أن علـى المؤمنين أن يؤمنـوا بإمكان وقوع ألطـاف الحـق تعالـى منةً منه وفضـلاً.. لكن علهيـم أيضًا أن لا ينسـوا البتة أنّ الوسيلة إلى اسـتمداد هذه العناية هي الهمة والمجاهـدة. وقد تفضَّل الله تعالى بتذكيرنا في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِيـنَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا﴾(العنكبوت:٦٩)، بـأن الألطـاف التي يخلقها ويُظهرها تقترن بعزم الإنسـان وإرادته، فنبَّهَنـا إلى أهميـة الجهد والمثابرة في نفس الوقت الذي قطع فيـه السـبيلَ أمام الشـرك، فكأن السـعي والجهد مـن أمارات توفيقه وتوجهه الخاص.

المؤمن والإرادة

ولابد أن أنبّه ههنا إلى أنه ينبغي أن لا يحمل محاولتنا لتفسيرِ وشرحِ النظام الإلهي الجاري في الوجود والحوادث، وفاعليةِ

هـذا النظـام باطراد وانسـجام وكأنـه تابع للأسـباب... ينبغي أن لا يحمـل ذلـك إلى أننا نقـوّم الأحداث مـن منظورِ فكرة "التعين السـابق" (Determination)؛ فغاية مـا نريده هي التذكير بـأن الإرادة الكليـة والجزئية في تصرفات الإنسـان تَوَجُّهٌ ذو لون من المشيئة الإلهية، وكذلك التذكير بأهميتها في مستوى الشرط العادي. وأذكِّر من فوري هنا بأمرٍ آخر هو: أنه -سواء اعتبرنـا "الإرادة" مَيلا أو تصرفًا جزئيًّا في ضمن ذلك الميل- لابد أن يَسـتعمل المؤمن قابليةَ الترجيح هذه، والتي يحسـها فـي وجدانـه، باتجـاهِ تحقيق ما يريـده الحق تعالى ويشـاؤه، وأن يحفـظ عزمه وثباته على هـذه الحال. فاللازم أن يتجنب المؤمن ما يقبّحه الشـرع، وأن يسـعى إلى المعـروف، ويُثْبِتَ بأطـواره ومواقفه في موضعِ تمثيل الإسـلام ثباتًا دائمًا، حتى تكـون كل لقطة من حياته أنموذجًا لوجه من أوجه الإسـلام، وحتى يُصوِّر الإسلام في ذاته ويشدو به في صوته ويجسده في شـكله باعتباره الممثلَ الصدوق لهذا الدين، وحتى يسـتخدم كل قدراته التي وهبها الله له في جعل الإسلام إحياءً للحياة... فيتحرى في كل صغيرة وكبيرة من أعماله كلها -مهما كانت- رضا الرب تعالى، وحسب تعبير بديع الزمان: أن يكون العمل لله، والابتـداء لله، واللقاء لله، والتكلـم لله... والتحرك أبدًا في دائـرةِ "لله، ولوجه الله، ولأجل الله"، وتكـون الثواني والدقائق والساعات والأيام في هذا العمر الفاني أجزاءً من زمانِ طريق البقاء، وتغدوَ وسائلَ لسعادته الأبدية.

وعلـى المؤمن أن يغـذي إيمانَه بنيّاتـه وتصوراته وإرادته وبرامجه، ويؤديَ حق إسـلامه، وألا يرسـل نفسـه إلى الغفلة دقيقة واحدة أو ثانية واحدة، حتى لا يقع في التفسـخ. وعليه أن يحرك مكوك الشـعور والحس والإرادة دائمًا من الإيمان إلـى "الحركيـة"، ومن "الحركية" إلى الإيمان، وينسـج نقوش قماش حياته ورقوشه وكأنه يعرضُها لمشاهدة أنظار الله تعالى بكامل انشراحِ الصدر.

الدعاء والعبادة

إن الكفـر والإلحـاد جهنم فـي القلب، وتَـرْك العمل الصالح غربة ومخمصة ووحشة. ولا مفر من ظهور اختلال الشخصية فـي أمثـال هـؤلاء بين حيـن وآخـر. إن عزائم هـؤلاء خائرة وأفكارهم سـائبة وإراداتهم مشـلولة. وإن الذي يقوي الإرادة إنمـا هو الدعـاء والعبـادة، والـذي يقتلع جذور الأحاسـيس والانقيادات الفاسـدة إنما هو التَوَجُّه إلى الحق تعالى والإنابة إليـه.. ولم يحـدُث أن انقطع في الطريق من تَوَجَّهَ بوجهه إلى الله بالمعايير الإسـلامية... ولئن تعرض نفـر منهم إلى اهتزازٍ بسبب ضعف منهم، فلم يُصرَع أحد منهم على ظهره تمامًا... فكيف بمن شد وثاق حياته بوشيجة الإحياء؟!

ولـن يسـتطيع المؤمـن أن يصمـد واقفًـا على سـاقيه ولا ينكـبَّ علـى الأرض إلا إذا عاش حياةً ذاتيـة وبعزم الإحياء. هـذا ما شـهدناه أبـدًا. فهو عادة سـبحانية لمشـيئة الله الكلية، وتبديلُهـا وتغييرهـا محـال على كل أحد. ولا جـرم أن أعداءَ ألِـدّاء يَبـرزون دومًـا ضـد الذيـن يعيشـون الحيـاة فـي هـذه الاستقامة، تطفح صدورهم غيظًا وحقدًا على هؤلاء المؤمنين ويقعدون لهم كل مقعد ليسـحقوهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتصـدون لهـم كل يوم بخطـر جديد. ولكـن المؤمنين حق الإيمان، يَخرجون دائمًا من هذه المحن أشـد شحذًا من قبل، بل يتبدلون إلى أخرويين ورِبيين وربانيين... وبمشاعر الرضا، يغيّـرون المصائـب إلـى رحمـات، ويحوّلون زخـاتِ البلايا إلـى مرشِّـحات للتطهير والتصفية، فـلا ينخلعون عن فكرهم وسلوكهم الذاتيين.

فالواجـب علينـا -نحن المسـلمين- أن نَعود إلى أنفسـنا وقيمنا، ونعزم على البقاء بذاتنا، ونتغذى من مصادرنا بأقصى قدراتنا. وإن مصدر الدين الإسلامي ومنبعه هو القرآن والسنة. فهو فائض من صدرهما. وقد أحرزت الأمة الإسلامية موقعًا تُغبط عليه، وصارت قدوة للأمم ما دامت متمسكة بهذا النظام الإلهـي. وبالمقابل كلمـا ابتعدت عن قيمهـا الذاتية، وقَلدت الأجانـب، وسـقطت أسـيرةَ أهوائِهـا ونزواتهـا، انكبت على وجهها من بؤس إلى بؤس، ومن عارٍ إلى عار.

العودة إلى الجذور

فيلـزمُ المسـلمَ ألا يهمـل قيمـه الذاتيـة البتـة، وأن يحـاول الاستفادة من المصادر الأجنبية بشرط استئذان النُّظُم والقواعد الأساسية الذاتية، وتنقيتها بالترشيح في تلك المصافي. ولكي لا يُسـاء فهمُ المقصود، نقول: إن الإسـلام لا يمنع المسلمين مـن تعلـم علـوم الفيزيـاء والكيميـاء والرياضيـات والفضـاء والطـب والهندسـة والإدارة العامة وإدارة الأعمـال والزراعة وأمثالها، بل يحثهم على التخصص فيها وأخْذِها والاسـتفادة منهـا مـن أي مصـدر كان. لكنـه لا يريد أن يبقى المسـلمون تبعًـا لغيرهـم على الدوام، بـل يحبذُ لهم الاسـتفادةَ مما عند الأجانب من هذه الأمور، ثم التخلصَ السريع من استجدائها،

وإقامةَ عالمهم الذاتي في الأوامر الإلهية التكوينيـة كمـا فـي الأوامر التشـريعية.

وكان أجدادنا فـي عصورنا الذهبية، يتذكـرون مرارًا وكل يوم أنهم خلفاء الله في الأرض، ويتحـرون مراد الله ورضاه فـي كل حركـة مـن حركاتهـم الدنيوية والأخرويـة، ويمحصـون أحوالهـم بميـزان الأوامـر التشـريعية، ويقيسـون مـدى صلتهـم بربهـم، ويَجِـدُّون فـي التعـرف على الأسـس التكوينية بعشـق جـادٍّ للحقيقة والبحث، ويَحُدّون البصر لاستطلاع الوجود والحوادث، ويحثون السـير فـي السـلوك إلى التوفيـق بين ما اطلعوا عليه فعلموا، وما سمعوه ففهموا، وبين العائلة والمجتمع والوجود كله، فيهرولون من العلم إلى العرفـان، ويحلقـون مـن المعرفة إلى المحبـة، فيرون في كل شـيء وحادثـة وتبليغ من الحق تعالى وسـيلةً للسـمو نحوه، ويضعونها في مقدمة أعمالهم الدنيوية وملاحظاتهم الأخروية.

> **على المؤمـن أن يغذي إيمانَه بنياته وتصـوراته وإرادتـه وبرامجـه، ويـؤديَ حق إسـلامه، وعليه أن يحرك مكـوك الشـعور والحس والإرادة دائمـاً مـن الإيمـان إلى "الحركيـة"، ومن "الحركية" إلى الإيمـان، وينسـج نقوشـ قماش حياته ورقوشـه وكأنه يعرضـها لمشـاهدة أنظار الله تعـالى بكامل انشراح الصدر.**

ولقد بلغوا أفقًا كهذا الأفق لأنهم عاشـوا الإسلام وأحيوه باعتبـاره كلاًّ لا يتجـزأ، وبحبهـم إيـاه مـن صميـم قلوبهـم وتحبيبهـم لـه، وبجعلِ الحياة الإسـلامية غايـةَ حياتهم. فلما توطـد فـي قلوبهـم روحُ حركـةٍ كهذه توطُّـدًا مكينًا، تأسَّـس توازُن الدنيا والعقبى تلقائيًّا وجَعَلهم مجتمعًا متوازنًا. فصاروا مقتدرين على التعبير عن ذواتهم في كل مكان وفي كل مجال للحيـاة. فمـا برحوا -بفضل ذلـك- يتجـددون ويتغيّرون في دائـرة "مقوماتهـم" الذاتيـة، ويهرعون إلى التغييـر، ويتعمقون علـى الدوام، ويصبحون بإيمانهم وحركيتهم أسـاتذةً يُعلمون الإنسـانية دروسًـا فـي الحضـارة في رقعـة جغرافية واسـعة. فكانـوا مرايا للحق تعالى في حركاتهم وسـكناتهم، وكلامهم وصمتهم... وكانوا في كل تصرفاتهم وسـلوكياتهم المتناغمة المؤتلفـة كأن كل واحد منهم آلة موسـيقية تُشْـجي بأناشـيده تعالى... ويَدْعون إليه بنداءاتهم الحرَّى كنداء الدلَّال. فكأنهم -بتعمقهـم وعرفانهم هذا- مجتمعُ صحابـة، وكأنهم ممثلون لخصال كثيرة تَرجع إلى رؤية النبي ﷺ.

فـإذا ما دخل هؤلاء المنورون إلى العلاقات مع الله تعالى أو تفكـروا فـي عقباهـم، فإنهـم -بيـن فينـة وفينة- يرسـلون أنفسهم في رحاب المعرفة، ويرتعشون بالخشية من أعماقهم، وتوجـف قلوبهـم، ويسـتغرقون فـي المحاسبة، ويجددون مراجعة كل شيء فيهـم، ويَزِنـون معايير القلـب كل مرة، ويحسـون دائمًـا بوطـأة المسـؤوليات والتكاليـف علـى أكتافهـم كالجبـال، وتـذوب النفـس والجسـمانية فيهـم ذوبانًـا يبدلهم إلى موجودات روحانية، وبالأخص إذا ما فاض القرآنُ والحقائقُ التي يسـتهدف القرآنُ شرحَها وانصبت في قلوبهم، فإن هذه القلوب التي غدت وكأن كل واحـد منها بيت من بيوت الله ستتطهر من كل خاطر أجنبي، فلا تفكر إلا بـه تعالـى ولا تشـعر إلا به وتشـرق شمس النهار به وتغيب به.

الإسلام والقلب

والأصل أن القلب المؤمن لا يَسَعُ الإسلامَ إلى جانبِ معتقدٍ غيـره أو تصـورات أخرى. فمـا إن يدخل الإيمان والإسـلام القلـبَ، حتى يكنسَ المتقبَّلاتِ الخاطئة ويمسـحها ويلفظها، وتصبـغ العبـادةُ كلَّ جهاتـه بلونه، ويصونه شـعورُ الإحسـان تحـت دفيئـةِ أن يـرى الحـق أو يراه الحـق، فلا يَبقـى فيه إلا الأنسام التي تهبُّ منه تعالى.

فبفضـل هذه العلاقة مع الله تعالى، والقائمةِ على أسـاس الإيمان والإسلام، تتجلى في فكر الإنسان وسلوكه استقامةٌ لا تتذبذب، وإخلاصٌ متماد، وشعورٌ مستمر في التعاون، وهمةٌ قلبية للتسـاند، وأخلاق أخروية. فالإيمـان النافذ إلى دواخل الإنسـان بهذه الدرجة، يتجلى في أحوال المؤمن كلها، سواء في الوظيفة أو التجارة أو معاملات الأسواق أو سائر الأنشطة الاجتماعية، فيطبع بصماته عليها، ويرسـم على روحه صورةَ معنـاه، وتنقلب الصورة بمرور الزمان إلى قصيدة معنوية تُقرأ علـى تصرفاته وسـلوكياته كلهـا... فكأن مؤمنا فـي مثل هذا التماسك هو المعنيُّ بمقولةِ: "إذا رأيته ذكرتَ اللهَ تعالى" (ابن ماجه).

ونعتقـد أن الإيمان والإسـلام بالمعنـى الحقيقي هو هذا، والوضعُ الإلهي الذي نسميه "الدين" هو العنوان الجامع لكل ذلك، و"التدين" اسـم لصيرورة هذه الحقيقة الجليلة حياةً أو إحياء للحياة. مبدؤه يسـتند إلى أجمل الكلام وأحسـنه: كلمةِ الشـهادة أو كلمـة التوحيـد.. ومنتهاه يمضي حتـى يصل إلى

رؤية الحق تعالى. فكل مَن يرَضى به ويعيشه على هذا الحال -والله يتولى السرائر- هو مؤمن ومسلم ومتدين من وجهة الكتاب والسنة... وأي اسم أو عنوان آخر غير ذلك قد يذكر به يعني تهوينًا من شأنه ووضعًا من قدره.

ويَرِد في المصطلحات الإسلامية بلساننا تعبيراتٌ مثل: "إسلام" و"مسلمان-مسلم" و"دينْدَارْ-ملتزم" عَلَمًا على المسلم. لكن لا يرِد فيها كلمات دسها الأجانب عن قصدٍ إلى لساننا فاستعملها البعض، مثل "إسلامي"[٢] (Islamist) و"دينيّ".[٣] إننا لم نتعرف على مثل هذه الألفاظ والأوصاف في ديننا من قبل وإلى عصرنا الحاضر. ولا يهمنا أنْ وردت بعينها أو بأشباهها في الأديان الأخرى أو المنظومات المتشكلة في صورة أديان غير ديننا. فبموجب ديننا، المسلمُ الذي يرتكب الذنوب أو يقع في الخطيئة يكون "آثما"، لكنه يبقى "مؤمنًا". والذي يترك العمل بأمور من الأسس الإسلامية، بشرط عدم إنكاره لها، يبقى "مسلما". فعلى هذا الاعتبار، تسميةُ الذي يبتغي أن يعيش الدين كاملاً بـ"الإسلامي" (Islamist) أو "الديني" غيرُ مناسب، كما أن تسمية تارك العمل بقسم من الأوامر الإسلامية أو المتقاعس عنها بـ"الكُفري" أو "الضلالي" أو "الفسقي" تعبير غير لائق. وأرى أن على الجميع أن يصون نزاهة لسانه، وأن يفكر ويتكلم بمستوى يليق بالإنسان، وأن يتعلم كيف يحترم كل أحد. ■



(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(١) "الدوائر الصالحة" اشتقاق على الضد من "الدوائر الفاسدة" (المترجم).

(٢) أنبه أن مسمى "إسلامي" (Islamist) و"ديني" له وقع أثقل على النفس بالتركية، إذ يقال بالنص "إسْلامْجِي" (İslamcı) و"دينْجِي" (Dinci) بحرفي النسبة الجيم والياء (جي)، وبهما أيضًا يُعرف أصحاب الحرف مثل "كَبابْجي" أو "حَلْوَجي" (صانع الكباب أو الحلوى وبائعهما)، فيكون المعنى أثقل في التركية وكأن المبلغ أو الداعية إلى الإسلام صاحب حرفة يحترف الإسلام ويتاجر به. (المترجم)

(٣) الديني: نسبة إلى الدين كما يقال "الإسلامي" نسبة إلى الإسلام. وهذان المصطلحان قد تم استخدامهما من قبل بعض الأوساط المغرضة والمعادية للإسلام -ولا سيما في تركيا- بقصد تشويه سمعة كل مسلم واع يحمل همّ إحياء شعائر دينه وإبلاغها إلى الآخرين. وهذه الأمور تدخل في صراع المصطلحات الثقافية الكثيرة، الحامي على سطح العالم الإسلامي، وفي تركيا خاصة. ومرده إلى قصد التمييز أو الفصل (كل حسب مرامه) بين المسلم وبين المبلّغ أو المرشد أو الداعية. ويراد منه تجريد المبلّغ أو المرشد أو الداعية عن الإسلام في بعض الأوساط، لعزله والاستفراد به. (المترجم)

أ.د. عمار جيدل*



الثقافة السننية
وصناعة المستقبل

كثيرًا ما كنتُ أمثّل في المؤتمرات الدولية في الخارج على فقد الثقافة السننية، بقصة الرجل الذي سئل في امتحان عن عاصمة العراق، فكانت إجابته عمّان، وعندما استفسر بعد الخروج من الامتحان، ذُكر له بأن عاصمة العراق هي بغداد، فتوجّه إلى الله داعيًا بقوله: "اللهم اجعل عمّان عاصمة العراق". فهل يمكن أن تتحوّل عمّان عاصمة للعراق؟ وهو بدوره لا يختلف عن رجل يسكن الطابق الثالث في عمارة، وصعد مصعد عمارته بقصد زيارة صديقه في الطابق السابع، ولما صعد، ضغط على زر الطابق الأول، فأدرك خطأه بعد الضغط على الزر مباشرة، ثم بدأ بالدعاء قائلاً: اللهم اجعل هذا المصعد يصعد عوض أن ينزل. فهل يمكن أن يتحقق له مقصوده بهذا الدعاء مهما كان مخلصًا؟

والمثالان السابقان لا يختلفان عن قصص كثيرة لها دلالة عميقة على فقد الثقافة السننية، تتضمن في مجملها تحصيل النتائج من غير مقدمات صحيحة فضلاً عن فقد المنهج الصحيح في النظر للمسائل. ومجموع المشاهد المستلة من واقعنا المعيش، تؤكد فقد الثقافة السننية، وتتمحور في مجملها حول فكرة مركزية مفادها روم تحصيل نهضة سياسية بغير ساسة أكفاء نزهاء، أو تمني نهضة علمية بغير علماء شرفاء نزهاء، أو الرغبة في إصلاح الوضع بجميع مكوّناته بفاسدين فكرًا ومنهجًا وخُلقًا...

الأمثلة السابقة عيّنات دالة بنفسها على فقد التفكير السنني، وحياتنا اليومية -العلمية والسياسية والتعليمية والتربوية والدينية والفلاحية والرياضية- طافحة بالتصرفات الدالة على فقد الثقافة السننية. لهذا تُعد الكتابة عن الثقافة

السـننية ضرورة ملحّة في اللحظـة الراهنة، وذلك لما تقتضيه أسئلة الواقع وسُبل التفكير في الإجابة عنها. فقد بدت الغالبية العظمـى مـن النخب المثقفة فاقدة للنظر المنهجي لمسـائلنا، مما أثر على سيرها التحليلي وفهم المجتمع على ما هو عليه في شعاب الحياة. وقد كان لهذا النظر السقيم أثر وخيم على موقـف غالبيـة مكونات المجتمع من المسـائل نفسـها، وهو موقـف موضوعي تمليه الصلة السـننية بيـن القيادات الفكرية والدينية وسائر مكوّنات المجتمع، ذلك أن لتلك النخب دورًا كبيرًا في توضيح سـبل التفكير في المشـاكل ومسـالك حلّها، فضلاً عن كونه دُربة نوعية على التفكير المنهجي في مسائلنا.

إذا كان توضيـح النخـب غامضًـا أو مُبهمًا أو ملبّسًـا، فما ننتظـر من متلقي تلـك التوجيهات أو التحليـلات أو الحلول المقترحـة؟ معلـوم أن نباهـة التلميـذ فـي الغالـب الأعـم -الاسـتثناء يؤكّد القاعدة العامة ولا يبطلها- من نباهة أستاذه، لا يتصـور وفـق التفكيـر الموضوعـي أن ننتظر حـلاً من هذا النـوع من النخـب، أو هذا النمط من المتلقيـن؛ فكيف ننتظر حلاً لمشاكلنا من عامة الناس؟

قد يرى بعض القرّاء أن المقال يبعث على اليأس، والواقع أننـا رُمنـا تجـاوز ثقافـة اليـأس أو التيئيس من الحـل، ولكن بطريقة سـننية تتجلى في السـير المنهجـي والموضوعي، فما السبيل إلى بعث هذه المسالك في المجتمع؟

الطريق للخلوص إلى هذا المقصد التأسيس لثقافة سننية، تتجاوز العبثية والفوضوية والارتجال، وتتطلّب مؤهلات معرفية وأخلاقية رئيسـة لا يتصوَّر الخلوص إلى المطلوب بإهمالها.

الثقافـة فـي سياق هذا المقـال (الثقافة السـننية) سـمات معرفيـة وأخلاقيـة يعرّف بها المجتمع مـن قِبَل نخب متحقّقة بها (الثقافة السـننية) فـي عقولها وقلوبهـا، وتترجمها مواقف إيجابية في شعاب الحياة، ثم تسعى سعيًا مستمرًّا إلى تحويلها إلـى صبغة يتحلى بها المجتمع بمختلف طبقاته وفي مختلف مجالات الحيـاة التربوية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والرياضية...

صبـغ المجتمـع بهـذه السـمات لا ينـال بالخُطـب التـي تـردد هنـا أو هناك، كما أنـه ليس قرارًا إداريًّا تُلزم به السـلطة المجتمع، وفي الوقت نفسـه لا ينشئه الارتجال أو التمنيات الفارغـة أو التمويـه أو التهريـج المهرجانـي... وكل محاولة لبعـث هـذه الثقافة بمثل هذه الوسائل أو ما كان في حكمها، ليـس إلا رغبة صريحة في نيل الحقائق بطريق الأوهام، وهل في البشر الأسوياء من يطمح في نيل الحقائق بالأوهام.

الثقافـة السـننية إن تحوّلـت إلـى صبغة عامـة للمجتمع، تحوّلت به عن مسالك انتظار النتائج بدون مقدّمات أو انتظار حصـاد من غيـر زرع أو بناء، من غير بـذل أو نجاح، من غير تأهّـل لنيـل أسبابه... كما تكسـب الثقافـة السـننية المجتمع فعاليـة التجـدد الذاتي بالتجديد المسـتمر لكفاءاتـه الفكرية، فيذهب الرديء وفق سـنن النكـوص ويحلّ محلّه الجيد وفق سـنن الصعـود، والخلـوص إلـى المقصود صناعـة مضبوطة وفـق خطة واضحـة ليس فيها للارتجال حضـور، وليس فيها للرداءة والسـفالة والصفاقة أن تفكّر في المشـاركة فضلاً عن المشـاركة بالفعل، وهو بصيغة صريحـة الصناعة خطة إرادية يضعهـا المجتمع مـن خلال قواه الحية، تلـك القوى المعبّرة عـن آماله وآلامه، ويفـرض نجاح الخطة أن يتصـدّر تنفيذها العارفـون بها، المتحققون بمعانيهـا، المصطبغون بها، تفكيرًا وتدبيرًا وموقفًا في شعاب الحياة. وفضلاً عن ذلك هم بحاجة إلى صبر ووقت وتعاون الجميع، وفحص مسـتمر للمكاسب بغرض تحسين الأداء.

القرآن مؤسس للسنن البشرية

الحديث عن الثقافة السـننية، حديث عن القوانين التي تحكم سـير الإنسـان والكـون بشـقيه المـادي والمعنـوي. وثبـات القوانيـن دعـوة إلـى اكتشـافها ثـم الإفادة منها فـي مختلف مجـالات الحياة، وهو عين ما يرمـي القرآن الكريم إلى تربية المجتمـع عليـه. لهذا يعدّ القرآن الكريم والسـنّة المطهّرة من أهمّ مصادر التعريف بسـنن الله في الخلق، وهو منهج وظيفي يخلص إلى بيان المراد من تلك السنن، من خلال التأكيد على خلودهـا وثباتهـا في رحلة البشـر في الكون، وهي تسـتوعب عوالم الإنسـان والعوامل المحيطة بها، خدمة وتسـخيرًا. من هنـا كان القـرآن الكريـم مصدرًا مهمًّـا في فهم تاريخ البشـر وأفكارهـم وتصرفاتهم الفرديـة والاجتماعية، فكان ما جاد به القرآن الكريم بمثابة درس مسـتمر دائم الحضور في الظواهر التاريخية البشرية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وقـد أيّـد اسـتقراء التاريـخ البشـري تلـك السـنن، وجاء الفكر البشـري القويم مؤيّدًا لها، وشاهدًا إضافيًّا على صدقها وصحتهـا المتأتيـة من كونهـا وحيًا يوحى، قـال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَـنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْـيٌ يُوحَى﴾(النجم:٣-٤)، من

هنا كان النص القرآني مؤسسا للسنن يعضّده الواقع البشري.

عرّفنا القرآن الكريم سنن الصعود، ليسلكها العقلاء في صناعة الحاضر والتفكير الجيّد في صناعة المستقبل، كما عرّفنا في الوقت نفسه سنن النكوص والتخلّف والتقهقر تنبيها للبشر قاطبة على ضرورة تلافيها، فهل تقتصر وظيفة السنن الإلهية على ما سبقت الإشارة إليه؟ أم إنها تتجاوز ما ألمحنا إليه؟

عرّفنا القرآن الكريم سنن الصعود، ليسلكها العقلاء في صناعة الحاضر والتفكير الجيّد في صناعة المستقبل، كما عرّفنا في الوقت نفسه سنن النكوص والتخلّف والتقهقر تنبيها للبشر قاطبة على ضرورة تلافيها، فهل تقتصر وظيفة السنن الإلهية؟ أم أنها تتجاوز ما ألمحنا إليه؟

وظائف السنن الإلهية

نؤكد من البداية أن دراسة السنن ليست من قبيل المعارف التي تحشى بها الرؤوس ويُتباهى بها في المجالس، لأنها إن قُصِرَت عليها، لم تكن غير نوع عبث "متديّن" منظّم، مضيّع للأوقات وصارف للطاقات في غير أبوابها.

الخلوص إلى الاستفادة من السنن في وظيفتها الحضارية، بصناعة حضارة متعبّدة لله بالفعل -وهي المقصد النهائي للسنن- يسترعي التوقف عند الوظائف المرحلية والجزئية للسنن في حياة البشر قاطبة، لأنها تُعد من المعابر الضرورية إلى المقصد النهائي (صناعة الحضارة المتعبّدة)، وإذا كانت الحضارة التي أرادها ديننا لا تقوم إلا على مجموعة من الوظائف الفرعية للسنن من نحو الوظائف؛ الإيمانية والنفسية والمنهجية والمعرفية والاجتماعية ...إلخ، تفرض الوظيفة الحضارية التوقف عند مجموع المحطات المشار إليها أعلاه.

يربينا القرآن الكريم على أن السنن قوانين ثابتة، ولثباتها تسترعي الاكتشاف، والسعيُ إلى اكتشافها جُهد معرفي بامتياز، ثم السعي إلى فهم السنن فضلاً عن تجسيدها بالنسج على منوالها في قوانين الصعود، والميل عنها في قوانين النكوص، صناعة معرفية تتجاوز ثقافة السبهْلَلَة -على البركة بمعناه السلبي- الذي يتجلى في إهمال قوانين سير المَرْكَبات الحضارية، ولا يختلف إهمال قوانين سير الحضارات نشأة واكتمالا وديمومة ونتائج عن إهمال قوانين سير المركبات العادية (السيارات)، وإذا كان الإهمال الثاني سببًا في ضحايا الطرقات وتضييع الطاقات المادية والمعنوية، فإن لإهمال الأول نتائج وخيمة على حاضر الأمة ومستقبلها، بل يُعَد إهمال الثقافة السننية في شعاب الحياة، أشنع وأفظع من أثر حوادث السير العادي على الأرواح والممتلكات.

مصطلح السُّنن

من منطلق ما سبق بيانه، سنعرض المراد في المصطلح المركزي في المقال "السنن". السنن جمع سنّة، وهي الطريقة والسيرة، حسنة كانت أو سيئة، وترد أيضًا بمعنى العادة، والتي تتضمّن أن يفعل الذي نُسِبت إليه السُنة في الثاني ما فعله في الأول، ولثباتها المشار إليه في التعريف أمر الله تعالى بأخذ العبرة من السنن السابقة، ذلك أنّ السنة تعني وقائع سنّها الله في الأمم أو الكون، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق؛ فهي تمثّل قانونه الذي يسير وفقه الكون، بصرف النظر عن الحُسن والقُبح المترتب عليها أو عدمه. فتشمل سنن الله بيان سنن صعود الحضارات ونكوصها، سواء تعلّق الأمر بالأوضاع العادية (السنن الجارية في العادة) أو الأوضاع غير العادية (خارقة للعادة) مثل (المعجزات)؛ فالأولى تمثّل القانون العام الذي يسير عليه الكون وفق تقدير مُنَظّمه، والثانية تمثّل سنّة الله في تأييد أنبيائه، وهي بهذه السمة عادة سائرة جار بها العمل وفق قانون الله في خلقه. عبّر القرآن الكريم عن تلك الحقيقة بأساليب مختلفة تدلّ بمجموعها على عادة الله الجارية في الخلق.

تنسب سنن إلى الله ﷻ مباشرة الخالق المدبّر، يشهد لهذا الاستعمال تعبير القرآن الكريم عنها بسنّة الله، من نحو قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٦٢)، والمعنى كما ذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "لن تجد لسنن الله مع الذين خلوا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلا"، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣)، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾(غافر:٨٥).

نسبة السنّة إلى الأنبياء، رغم كونها قانون الله في الخلق، يشهد لهذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا

قَبْلَكَ﴾(الإسراء:٧٧)، ولا شك أنها تذكير بقانون الله في الخلق لمن يعرفها، وتعليم لمن جهلها.

نسبة السنّة إلى المباشرين لها، وإن كانت السنن نفسها من خلق الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾(الأنفال:٣٨)، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾(الحجر:١٣).. وأقوال المفسّرين تقتبس من القرآن معانيها الجلية. وفي هذا المقام يذكر العلامة جمال الدين القاسمي في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية (٦٢) بـ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٦٢) فيقول: "أي لأنه لا يُبَدلها، أو لا يَقدر أحدٌ أن يُبدلها".

وتدل مجموع استعمالات مصطلح "السنن" على حقيقة واحدة، يجمعها الانضباط المعرفي والمنهجي، المفضي إلى تاسيس حقيقة المعرفة الثابتة بالسنن في القرآن الكريم، تفيد المتلقي في هيكلة فكره وتفكيره، كما تفيده في التحضير المنهجي لاستثمار تلك الحقائق في شعاب الحياة، وخاصة في ظل معرفة مستفادة من الوحي يؤيدها التاريخ البشري.

وما دام القرآن الكريم هو كتاب الله المقروء، والكون هو كتاب الله المنظور، فلا تناقض بينهما. فكان الثاني بشواهده الواقعية المعاينة المتكررة، شاهدًا إضافيًّا على صحة ما جاء به التنزيل، وكان النظر في سنن الله المبثوثة فيه (الكون كتاب الله المنظور) وفق أمر الله تعالى الوارد في التنزيل مؤكدًا لصحة السنن المبثوثة في الكتاب المسطور (الوحي). من هذا المنطلق كانت السنن المبثوثة في التنزيل قواعدَ عامة يحتكم إليها في تحليل الحاضر والتخطيط للمستقبل، وقد وضع القرآن الكريم خطة موضوعية ميسّرة لجميع الخلق، تأسيسًا للسنن في عقول وقلوب الخلق، فهمًا للماضي وتأسيسا للمستقبل. يشهد لهذا أن الله أمر بالسَير في الأرض، مع أن مطالعة الكتب قد تفيد شيئًا من هذه المعاني. والسَير أهم وأوضح في الدلالة على المراد من مطالعة الكتب على ما فيها من أهمية، ذلك أن السير يفيد البشر على تفاوت مستويات تحصيلهم، فتفيد المشاهدة مَن لم يقرأ علمًا أو تاريخًا، وتقوّي علم مَن قرأ التاريخ أو قُص عليه، بينما مطالعة

الخلوص إلى الاستفادة من السنن في وظيفتها الحضارية، بصناعة حضارة متعبّدة لله بالفعل وهي المقصد النهائي للسنن، يسترعي التوقف عند الوظائف المرحلية والجزئية للسنن في حياة البشر قاطبة، لأنها تُعد من المعابر الضرورية إلى المقصد النهائي (صناعة الحضارة المتعبّدة).

الكتب لا تفيد إلا طبقة مخصوصة، والواقع المعاين شاهد على صحة تلك المعاني، وبمقدور كل الناس استيعاب ما يفيدهم في تقرير ثبات السنن.

مثلا، هل في البشر الأسوياء مَن شهد في تاريخ البشرية أن الظلم بكلّ تجلياته "المعرفية، السياسية، التربوية، الثقافية، الحضارية، الاجتماعية، الاقتصادية".. طويل العُمر مفضٍ إلى تفعيل دور المجتمع المظلوم؟ فالظلم المعرفي واضح النتائج، بيّن الأثر في الحاضر والمستقبل، والظلم السياسي أو الاقتصادي والاجتماعي واضح النتائج أيضًا، ذلك أن الظلم لا يتجزأ، فحيثما وُجد الظلم وُجدت نتائجه ضرورة، هذا قانون الله في الخلق ولن تجد له تبديلا، والتعمية عن نتائجه فتلوينها أو تلوين المقدمات (الظلم) بخلع صفة العدل عليها، لن يمنع ظهور نتائجه الوخيمة على الحاضر والمستقبل العاجل والآجل (الآخرة)، المتمثلة أساسًا في الكراهية والرغبة الجامحة في زوال ملك الظالم، هذا إن لم يفض طول عمره إلى اليأس الذي هو أخطر الأمراض المعنوية، ذلك أنه يدفع اليائس إلى الإهمال وفقد الحمية الدينية والوطنية، بل وفَقد الروح المعنوية. أليس في كل ما سبق عند التحقق به، صناعة معرفية واضحة جلية يستفاد منها في فهم الحاضر وصناعة المستقبل، من خلال الاعتبار بدروس الماضي القريب والبعيد، فالثقافة السننية صناعة معرفية.

ولكن فاعلية السير، ترجع في العُمق إلى الأساس الإيماني للأمر بالسير: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾(النمل:٦٩)؛ وينفع الأساس الإيماني في الانضباط في السير في الكون، كما يفيد ضبط السير بالمقصد منه، ومراعاة مقصد السير -أثناء السير نفسه- يفيد صاحبه تجربة ودُربَة على الفهم فيما عاينه، فلاحظ أن فاعلية السير ترجع إلى الأساس الإيماني للسير بغرض اكتشاف سنن الله في الخلق، والعمل على منوالها بعثًا للخير ودرءًا للشر. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.



علوم

د. حذيفة أحمد الخراط*

الكحول

تأثيراته الطبية والنفسية

جاء دين الإسلام فأمر بالحفاظ على ضرورات الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وحرّم تفويت شيء منها، ونهى عن إفسادها أو المساس بها بسوءٍ من قريب أو بعيد.

وليس ثمة جرم يؤثر في تلكم الضرورات الخمس ويجرح كيانها كما تفعل الخمرة. وليس ثمة خبيثة مثلها حوتْ ما تحمله هذه الكلمة من معاني السوء وخصال الأذى.

وما برح العلماء يكشفون النقاب عن جانب جديد من مضار الخمرة، فمنذ أن تعرّف الإنسان القديم عليها وحتى اليوم، أخذ يرى بأمّ عينه ويلمس الجديد من تلك المضار. وما الخمرة إلا إحدى تلك المحرمات التي وصفها القرآن بالرجس المتصل بعمل الشيطان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:٩٠).

وقد قُتلتْ الخمرة بحثًا، وما تزال محط أنظار الدارسين والباحثين، وليس المقام يتسع لذكر أضرارها على الأصعدة المختلفة في مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، وسنعمد إلى تحري الموضوع -عن كثب- من وجهة نظر طبية صرفة، لأنه أصعب من أن يحاط به من كل نواحيه في صفحات محدودة.

الطبيعة الكيميائية لسائل الخمرة

تنتمي الخمرة كيميائيًّا إلى عائلة كبيرة تُعرف بالكحوليات (Alcohols)، وهي مركبات عضوية تنشأ عن اتحاد سلسلة هيدروكربونية بمجموعة الهيدروكسيل بنسب متفاوتة. وتصفها كتب الكيمياء بالمادة السامة التي تظهر في صورة سائل لا لون له، سريع الاشتعال، يتطاير بسرعة، ذي طعم لاذع، يذوب في الماء والمواد الدهنية.

يظهر تأثير الخمرة السلبي في أنسجة الجسم المختلفة، ولا يكاد ينجو من تأثيراتها المدمّرة عضو من الأعضاء. وسنعمد إلى إيضاح الأمر بدراسة تأثير الخمرة في أجهزة الجسم كلّ على حدة، وسنرى -عن كثب- عظم حجم المشكلة وما ينتج عنها من تأثيرات ذهنية وجسمية.

يتجرع شارب الخمرة شرابه هذا ولا يكاد يُسيغه، وبعد أن تستقر جزيئاته في معدته، تبدأ عملية امتصاص سريعة لها من المعدة والأمعاء الدقيقة، فيصل بعدها بدقائق قليلة إلى مجرى الدم الذي سينقل تلك السموم إلى أعضاء الجسم المختلفة، وبذلك ينتشر السمّ الزعاف ويصل إلى جميع خلايا الجسم دون استثناء.

ومن الملاحظ هنا، أن تركيز الكحول في أعضاء الجسم، متناسب مع تركيزه في الدم، وهذا يعني أن القوة التخريبية لجزيئات الخمرة، تبقى مرتفعة ولا تضعف بانتقالها من نسيج لآخر أو من عضو لآخر.

وتنتقل الخمرة مع جريان الدم من المعدة والأمعاء باتجاه الكبد، ومنها إلى القلب الذي يضخها نحو الرئة، ومنها إلى الدماغ وأعضاء الجسم الأخرى، وتخرج لاحقًا من الجسم مع هواء الزفير الخارج من الرئة، ويخرج جزء آخر مع البول، وآخر مع العَرق والدموع وحليب الأم المرضع.

تأثير الخمرة في صحة الجهاز الهضمي

يظهر تأثير شرب الخمرة في جميع ما تمر به من أنسجة الجهاز الهضمي بدءًا من الفم؛ إذ تكثر لدى السكارى حالات التهاب اللسان (Glossitis) التي تنتج عن نقص امتصاص مجموعة فيتامين (B). ومن أعراض المرض؛ صعوبة البلع وأعراض سوء التغذية، وضمور خلايا التذوق في اللسان المؤدي إلى ضعف هذه الحاسة.

وللكحول مقدرة واضحة في تنبيه غدد جدار المعدة، وبالتالي زيادة كمية ما تفرزه من عصارات حمضية، وهذا يصيب المعدة لاحقًا بالقرحة (Peptic Ulcer)، كما يؤدي تناول الكحول إلى التهاب المعدة الحاد، وتهتّك غشائها المخاطي، وحدوث نزيف الجهاز الهضمي.

ومن الشائع أيضًا لدى متناولي الخمرة، الشكوى من فقد الشهية، وعسر الهضم، والإسهال، وألم البطن، والقيء الممزوج بالدم، والغثيان، وكثرة التجشؤ.. وينتج هذا عادة عن التهابات الجهاز الهضمي المتكررة.

ويبتعد عن عين الصواب مَن يزعم أن الكحول مصدر غذائي غنيّ بمستلزمات الطاقة، إذ يخلو الكحول من عناصر الغذاء الهامة كالبروتين والمعادن والفيتامينات، كما أنه يعيق عملية الامتصاص لما يلزم الجسم من عناصر الغذاء الهامة، مثل فيتامينات الغذاء والماء والمعادن الهامة، ولا يعدو ما ينتج عن شربه من دفء وطاقة، أن يكون أوهامًا مؤقتة زائفة يتبعها عميق الندامة والخسارة.

من الناحية المقابلة، يسهم الكحول في تسهيل امتصاص مواد الغذاء الضارة، كالدهون الثلاثية والكولسترول عبر خلايا الأمعاء، وهذا يعني زيادة نسبتها في الدم لاحقًا، وفي ذلك تهديد لصحة القلب والأوعية الدموية.

تأثير الخمرة في صحة القلب والأوعية الدموية

ما برحتْ الدراسات العلمية تذكر ما للخمرة من تأثير ملحوظ في صحة قلب الجسم وأوعيته الدموية، وقد غدا من الثابت أن شربها يؤدي إلى زيادة سرعة ضربات القلب، وهو ما يعرف علميًّا بالخفقان (Palpitation). ولشربها أيضًا دور في ارتفاع ضغط الدم وتوسيع أوعية الجلد الدموية، وهذا يعني زيادة تدفق الدم نحو الجلد بصورة غير طبيعية يبدو معها جلد شارب الخمرة أحمر اللون نتيجة لاحتقانه بالدم الراكد.

ومن اللازم هنا، أنْ نذكر أنّ توسع الأوعية الدموية

في الجلد، يحدث على حساب أوعية الأمعاء والأحشاء والأوعية المغذية لعضلة القلب التي تصاب بالتقلص الشديد، فيقلّ -لذلك- جريان الدم باتجاه تلك الأعضاء، مما ينعكس سلبًا على صحتها وسلامة أدائها الوظيفي.

وتشير الدراسات المقارنة إلى ارتفاع عدد حالات موت الفجاءة بين صفوف شاربي الخمر، ويعود سبب ذلك إلى اعتلال عضلة القلب (Cardiomyopathy)، واضطراب نظم ضرباته، وتضيق ما يغذيه من الشرايين التاجية.

ومن تأثيرات الخمرة الأخرى في اعتلال صحة القلب، ما يُحدثه شربها من زيادة في نسبة دهون الدم، فيرتفع بذلك مستوى الكولسترول والشحوم الثلاثية (Triglyceride)، وتترسب بدورها في جدار الأوعية الدموية فتتصلب لاحقًا ويضيق قطرها -شيئًا فشيئًا- إلى أن تقلّ كمية الدم التي تغذّي القلب، وهذا يعرف علميًّا بنقص التروية والاحتشاء القلبي (Ischemia & Infarction).

من جهة أخرى، تعمل جزيئات الكحول على إخراج معدن البوتاسيوم من خلايا عضلة القلب، وهي تسمح -بالمقابل- بدخول المزيد من أيونات الصوديوم إليها، ويظهر تأثير هذا سلبًا في وظائف القلب الفسيولوجية.

ويقلل الكحول من كفاءة انقباض عضلات القلب، ويصاحب ذلك انخفاض معدل ما يضخه من الدم، كما تصاب أليافه العضلية بالتنكّس (Degeneration) وينخفض نشاط إنزيماتها.

تأثير الخمرة في الكبد وغدد الجسم

تتربع الخمرة على رأس قائمة أسباب أمراض الكبد المختلفة، ولها الكثير من التأثيرات الاستقلابية المدمرة في خلايا الكبد؛ فاحتساؤها يزيد من مستوى دهون الدم، ويؤدي إلى تراكم تلك الدهون في نسيج الكبد، وهذا يعرف علميًّا بتشحّم الكبد (Fatty Liver Disease) الذي يقود إلى تضخم حجمها وإصابتها لاحقًا بالتشمّع (Cirrhosis) والتليّف (Fibrosis) الذي يحوّل نسيجها الطبيعي إلى آخر ليفي عديم الفائدة.

وللخمرة تأثيران متناقضان في نظام سكر دم الجسم، إذ تؤدي تارة إلى إنقاصه بالتأثير في مخزن السكر بالكبد وإصابته بالنضوب، وتارة أخرى يرتفع سكر الدم وبالتالي يظهر الداء السكري.

ويعد تعاطي الكحول من ناحية أخرى، أحد أهم أسباب التهاب غدة البنكرياس (Pancreatitis)، وتظهر أعراضه في صورة آلام حادة في البطن والإصابة بالقيء، وقد تنزف البنكرياس هنا أو يصاب جزء واسع منها بالنخر والتكلس.

وينتج عن شرب الخمر أيضًا، خلل واضح في عمليتَي الاستقلاب والتمثيل الغذائي في الجسم، مؤديًا إلى قلة إنتاج البروتينات وانخفاض كفاءة الكبد في تخزين الفيتامينات والمعادن، ولذلك تكثر لدى المخمورين أعراض نقص هذه المواد، مثل تأخّر التئام الجروح وإصابة الجسم بالضعف العام والوهن.

وللخمرة تأثيراتها المدمّرة في أداء الغدد الجنسية، إذ يترافق شربها مع ضعف الصحة الجنسية وكثرة حالات العقم، وتشاهد في صفوف شاربيها حالات ضمور الخصية وانخفاض معدل ما تفرزه من هرمونات الذكورة، كما ينخفض عدد الحيوانات المنوية، وتظهر تشوهات في شكلها ووظائفها، وترتفع نسبة الهرمون الأنثوي (الإستروجين) لدى الرجال، ويؤدي هذا إلى ظهور صفات أنثوية في جسم الرجل، مثل زيادة حجم الثدي وتساقط الشعر.

ولا يقلّ الأمر سوءًا لدى غدد المرأة التي تشرب الخمر، إذ يضمر المبيض هنا، وتضطرب الدورة الشهرية، وتزداد حالات الإجهاض، ويصاب الثدي بالضمور وتقلّ كمية ما يفرزه من حليب تدريجيًّا.

تأثير الخمرة في صحة المسالك البولية

يزيد شرب الخمرة من إدرار البول بصورة واضحة، يفقد الجسم معها كميات كبيرة من مائه وما يحويه من معادن ذائبة فيه، ويقود هذا إلى جفاف أنسجة الجسم الداخلية وإصابته بأعراض نقص معادنها.

ولارتفاع نسبة دهون الدم التالي لتعاطي الخمرة أثره المخرّب، إذ يُرهق ذلك صحة الكلى التي تسعى للتخلص من تلك الجزيئات، وهذا يعني ضعف الكلى لاحقًا والإصابة بالفشل الكلوي، ويترافق ذلك مع خروج بعض المواد الحيوية مع سائل البول، مثل كريات الدم الحمراء والبيضاء والصفائح الدموية، الأمر الذي يُفقد الجسم ما يحمله من دم هام في صحته.

وينتج عن بعض المشروبات الكحولية، إصابة الكلية بالضمور (Atrophy) والتليّف، كما تكثر هنا حالات حصى المسالك البولية، لما يحويه ذلك الشراب من مواد تترسب مكونة تلك الحصيات التي تسبب الكثير من الأعراض والأمراض.

التأثيرات العصبية للخمرة

تغتال الخمرة صحة عقل شاربها، ولذلك أُطلق عليها اسم "الغَول"، وتتأثر بشربها مراكز الدماغ ذات الوظائف الحيوية، مثل الذاكرة والكلام والسلوك والحركة، كما يؤثر تعاطيها في سلامة أداء وظيفة المُخيخ في حفظ توازن الجسم، فيفقد شاربها توازنه ويفشل في الحفاظ على وقوفه بثبات، ويسير مترنحًا وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال.

ويكثر مع شرب الخمرة فقْد ضبط المهارات العملية والقولية، ويُستبدل باتزان الجسم السليم عشوائية الحركات.

من زاوية أخرى، تقلل الخمرة من كفاءة الأداء العقلي وفاعلية التعلّم وقوة الانتباه، كما تُضعف الذاكرة وحدّة التركيز وملكة التمييز والحكمة، ويفقد الإنسان بذلك ما خصّه الله به من نعمة العقل، فيغدو أقرب إلى حيوان يحيا دون قيد أو رادع، وتعود تلك التأثيرات إلى إصابة قشرة المخ (Cerebral Cortex) التي تنظّم مهام التفكير والإحساس والتحكم العضلي بالجسم.

تفشل الكبد في تعديل ما تحمله الخمرة من سموم تتراكم في دم جسم شاربها، ومن تلك السموم؛ مادة الـ"أمونيا" التي تصل لاحقًا إلى الدماغ ملحقة الضرر بخلاياه وأنسجته، مما يسبب الإصابة بالإغماء.

ويتصاحب الارتفاع الشديد لنسبة الكحول في دم الجسم مع تأثر مركز التنفس في الدماغ، ويقود هذا -في حالات كثيرة- إلى توقف عملية التنفس تمامًا، مما يعني موت المصاب.

ومما يصاب به شارب الخمر أيضًا، الارتعاش والهلوسة وما يعرف طبيًّا باعتلال الأعصاب (Neuropathy). وفي حالات أخرى يميل الدماغ نحو الضمور وتذوب الخلايا والألياف العصبية، ولذلك يظهر المخ هنا باستخدام الأشعة، أصغر من حجمه الطبيعي.

كما تنقبض بشرب الخمرة أوعية الدماغ الدموية، فتقلّ كمية ما تحمله من غاز الأكسجين وتصاب بالنزيف التلقائي، وقد يكون هذا قاتلاً في بعض الأحيان.

وقد يؤدي التناول المفرط للخمرة إلى حدوث ما يعرف بالذهول (Stupor)، وهنا يفقد المريض وعيه ونشاطه الذهني وتقلّ استجابته للمؤثرات الخارجية وتتعطل حواسه الخمس، ويلي ذلك إصابة الجسم بالغيبوبة الكاملة (Coma) أو الوفاة.

الخمرة والجهاز الحركي

تصيب الخمرة عضلات الجسم بالآلام الحادة والمفاجئة، ويكثر أيضًا أن تصاب تلكم العضلات بالضعف والضمور، ويشاهد أيضًا موت أجزاء منها وإصابتها بما يُعرف بـ"تنخّر العضلات"، ويعزى ذلك إلى التأثير السمّي لمادة الكحول في خلايا العضلات، وما ينتج عن تناولها من نقص في المعادن التي تبني كتلة العضلات مثل البوتاسيوم والمغنيسيوم، بالإضافة إلى قلة الدم الذي يغذّي تلك الأنسجة.

وتكثر في صفوف الكحوليين حالات داء النقرس (Gout) التي تدمر مفاصل مريضها وتؤدي إلى التهابها وتآكلها المزمن، بالإضافة إلى ظهور الآلام المبرحة فيها وظهورها بصورة شديدة التشوه.

وتضعف في عظام شاربي الخمرة، عملية ترسيب المعادن التي تبني العظم السليم، فتصبح -بذلك- عظامهم أكثر عرضة للكسور والإصابة بأمراض هشاشة العظام (Osteoporosis) ولين العظام (Osteomalacia).

الخمرة وأمراض الدم والسرطان

تنجح الخمرة في إلحاق الأذى بكل مكونات سائل الدم، إذ تفقد الخلايا الحمراء وظائفها فتقلّ قدرتها على حمل غاز الأكسجين وتكثر حالات فقر الدم، كما يقلّ نشاط الخلايا البيضاء ويقلّ عددها وينخفض معدّل إنتاجها، وهذا يُضعف جهاز مناعة الجسم فيكثر التعرّض للالتهابات المختلفة، مثل السل والالتهاب الرئوية الأخرى.

كما تُضعف الخمرة أيضًا، نشاط الصفائح الدموية، وتصبح الأوعية الدموية هشة وسهلة الكسر، فتكثر

بذلك حالات النزيف. وتحفّز الخمرة كذلك نمو الخلايا السرطانية، إذ يدخل في تركيبها الكثير من المواد السامة ذات التأثير المسرطن في خلايا الجسم، مثل الكربون الحلَقي (Polycycli Hydrocarbons)، ومادة أسباراجيلوس (Aspergillus)، ومادة نيتروزامين (Nitrosamines). ومما يشاهد من هذا الداء لدى شاربي الخمرة؛ سرطانات الفم، والحنجرة، واللسان، والمريء، والمعدة، والأمعاء، والبنكرياس، وثدي النساء.

التأثيرات النفسية لشرب الخمرة

لا يقل أثر الخمرة في صحة نفس شاربها عما هو عليه في صحة جسده، فبشربها تتأثر قشرة الدماغ التي تضمر شيئًا فشيئًا، ويتظاهر ذلك بالميل نحو الثرثرة والهذيان وتزول دواعي الخجل. وكثيرًا ما يعاني المريض من نوبات فقدان الذاكرة والاكتئاب والقلق والأرق. وتسجّل حالات الانتحار أعلى معدلاتها بين صفوف الكحوليين الذين يعمدون إلى إنهاء حياتهم هربًا من واقعهم الأليم.

ومن مظاهر شرب الخمرة النفسية، ما يُعرف بالخَرَف الكحولي (Dementia) الناتج عن ضمور خلايا المخ، ويعرف هذا بالهلوسة السمعية والبصرية، فيتخيّل المريض وجود أشياء وهمية، ويخاف من الأصوات الغريبة التي تصدر من حوله فيغدو بذلك دائم الحيرة والقلق.

تأثير الخمرة في أعضاء الجسم الأخرى

لا يكاد ينجو نسيج في الجسم من أضرار تعاطي ذاك السائل الخبيث، وما ذكر من أضرار ما هو إلا غيض من فيض. ونزيد فنذكر بعض تأثيرات الخمرة في أعضاء أخرى؛ ففيما يخصّ صحة العين مثلا؛ تسبّب بعض أنواع الخمرة ضمور العصب البصري الذي ينتج عنه عمى مفاجئ، وينتج عن أخرى ضعف في عملية الإبصار وأمراض الشبكية المختلفة وعمى الألوان.

وفي الجلد تكثر بين صفوف الكحوليين، حالات داء الصدفية (Psoriasis) والتهاب الجلد الدهني (Seborrheic Dermatitis)، والإكزيما، والأمراض الفطرية، وتصبّغات الجلد. وفي الفم تكثر التهابات البلعوم، وتزيد هذه من صعوبة البلع، ويرافقها التهابات الحنجرة والحبال الصوتية، وتصاب الأسنان بالنخر وتتسوّس، وتظهر في الفم القُرح، ويكثر أن تلتهب غدده اللعابية.

ولجزيئات الكحول مقدرة على عبور المشيمة، وبذلك تنتقل مسرعة من جسم الأم الحامل نحو جنينها، فتضرب الأم هنا بصحة وليدها عرض الحائط، وتوجّه سهام ما تشربه نحو الجنين دون هوادة.

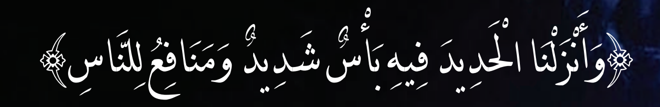
والجنين هنا، أكثر عرضة للإجهاض ولتخلّف النمو داخل الرحم، وتصيبه الكثير من التشوهات الولادية، مثل؛ صغر حجم الرأس، وتشوهات الأذنين وصمامات القلب والعظام والتخلف العقلي.

ختامًا، لقد حاز الإسلام قصب السبق حين نادى بتحريم الخمرة، وحذّر منها قبل أن ترتفع صيحات علماء الغرب التي أخذتْ تشنّ الحرب ضدها. وإن دينًا كهذا، لهو أحق بأن يُتّبع، وتعاليمه لهي أجدر بأن تُقتفى، وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ نعت الخمر بقوله: "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث" (رواه النسائي).

ويجدر بنا أن نتساءل وقد عاش هذا النبيّ الأمّي محمد ﷺ في بيئة مولعة باحتساء الخمرة: مَن علّمه أضرارها الفتاكة في كيان الجسد؟ ومَن أرشده إلى أهمية تجنّب هذا الرجس الخبيث؟ إلا أن يكون هذا المرشد وحيًا من لدن خالق هذا الجسد. وما أحرى الدعاة أن يُصاحبوا أسرار تحريم الخمرة وهم يتحدثون عن خصائص الإسلام وصياغته لما يوافق خلْقه وفطرته السليمة. ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة/المملكة العربية السعودية.

أ.د. زغلول النجار*



الإعجاز العلمي في
إنزال حديد الأرض من السماء

هناك مجموعة من الأسئلة الهامة: كيف أُنزل الحديد إلى الأرض من السماء؟ وكيف اخترق غلافها الصخري؟ وكيف تركز في قلب الأرض؟ وكيف تناقصت نسبته بانتظام من مركز الأرض إلى سطحها؟

يقول ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد:٢٥).

وهذه الآية الكريمة تشبه إنزال الحديد من السماء إلى الأرض بإنزال الوحي إليها، وتؤكد بأس الحديد الشديد ومنافعه للناس.

ونحن نعرف اليوم أن عنصر الحديد هو أكثر العناصر انتشارًا في كوكب الأرض ككلٍّ، حيث يكون الحديد وحده أكثر من ٣٥٪ من مجموع كتلة الأرض المقدّرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طنًّا (٥٩٧٤ × ١٠^١٨ طن)؛ وهو رابع عنصر انتشارًا في قشرة الأرض، حيث تصل نسبته إلى ٥,٦٪، وهذا التوزيع معناه أن أغلب حديد الأرض مركّز في قلبها وأوشحتها الداخلية. وقد ثبت بالفعل أن للأرض لبًّا صلبًا داخليًّا تصل نسبة الحديد فيه إلى ٩٠٪، ونسبة النيكل إلى حوالي ٩٪ وهو من مجموعة عناصر الحديد، بالإضافة إلى حوالي ١٪ عناصر خفيفة من مثل الكبريت والفوسفور والسيليكون. ثم يلي ذلك اللب الصلب إلى الخارج لب سائل له نفس التركيب الكيميائي، ثم أربعة أوشحة متمايزة

تتناقص فيها نسبة الحديد من الداخل إلى الخارج بالتدريج حتى تصل إلى قشرة الأرض وبها ٥,٦٪ حديد.

وهنا يبرز التساؤل الهام؛ كيف أنزل حديد الأرض إليها من السماء؟ وكيف اخترق غلافها الصخري؟ وكيف تركز في قلب الأرض؟ وكيف تناقصت نسبته بانتظام من مركز الأرض إلى سطحها؟

وللإجابة على هذه الأسئلة لابد من النظر إلى الأرض بصفتها جزءًا من الكون المحيط بها، والذي أثبتت الدراسات مؤخرًا، أن الغالبية العظمى من تركيبه تتمثل بغاز الإيدروجين والذي يشكل أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور.

والإيدروجين هو أخف العناصر المعروفة وأقلها بناءً، ويلي الإيدروجين كثرة في الجزؤ المدرك من الكون غاز الهيليوم الذي يكون حوالي ٢٤٪ من مادة الكون المنظور، وأن باقي ١٠٨ عناصر يعرفها إنسان اليوم تكون أقل من ٢٪ من مادة الكون المنظور.

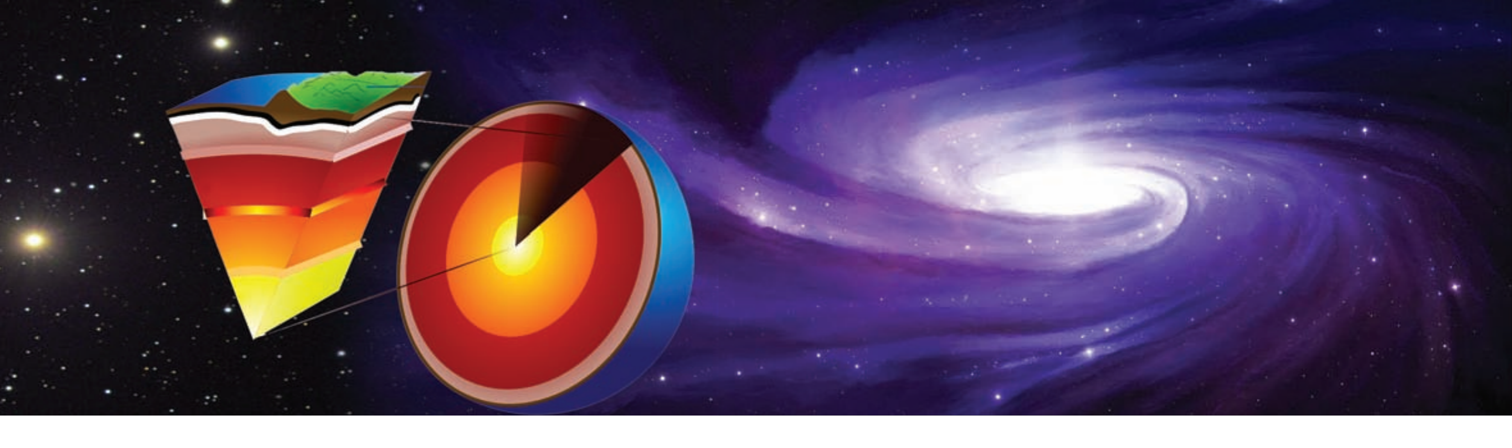
هذه الملاحظات أكدت أن نوى ذرات الإيدروجين، هي اللبنات الأساسية التي تخلقت منها ولا تزال تتخلق كل العناصر الأخرى، بعملية تسمى باسم عملية الاندماج النووي، وأن هذه العملية الاندماجية لنوى الذرات تمثل وقود النجوم، لأنها عملية مطلقة للطاقة، وأنها السبب الرئيسي لتوهج النجوم.

وعملية الاندماج النووي في شمسنا، لا تكاد تتعدى إنتاج الهيليوم، بالإضافة إلى نسب ضئيلة من عناصر أعلى في وزنها الذري لا تصل أبدًا إلى الحديد، ولا تكاد تتجاوز إنتاج بعض نوى ذرات الألومنيوم والسيليكون. ولكن الشمس، بها نسبة من الحديد لا تتعدى (٠,٠٠٣٧٪) سببها كتل النيازك الحديدية التي تسقط على الشمس كما تسقط على الأرض.

وهناك أدلة كثيرة على أن الأرض وباقي أجرام المجموعة الشمسية قد انفصلت أصلا من الشمس، وأن الشمس لا تصل فيها عملية الاندماج النووي أبدًا إلى مرحلة إنتاج الحديد، بل تتوقف قبل ذلك بمراحل كثيرة. وهنا برز السؤال الهام: من أين جاء هذا الكم الهائل من حديد الأرض والذي يقدر بأكثر من ألفي مليون مليون مليون طن (٢١٤٥ مليون مليون مليون طن)؟

وشمسنا نجم متواضع تصل درجة حرارة سطحه إلى ستة آلاف درجة مئوية، ودرجة حرارة جوفه إلى حوالي ١٥ مليون درجة مئوية، بينما تقدر درجة الحرارة اللازمة لإنتاج الحديد بعملية الاندماج النووي بخمسة بلايين درجة مئوية على الأقل، وذلك اتجهت أنظار العلماء في بحثهم عن مصادر للحديد في عدد من النجوم التي تفوق درجة حرارتها درجة حرارة الشمس بمعدلات كبيرة؛ من مثل النجوم العملاقة (التي تقدر كتلة الواحدة منها بعشرة مرات قدر كتلة الشمس على الأقل) وتصل درجة حرارتها في مراحل انفجاراتها الأخيرة إلى بلايين الدرجات المئوية. وقد لاحظ علماء الفلك والفيزياء الفلكية في المراحل المتأخرة من انفجار النجوم العملاقة والمعروفة باسم "المستعرات العظمى"، أن عملية الاندماج النووي للإيدروجين، تتواصل حتى تنتج نطقًا تترتب من الخارج إلى الداخل من الإيدروجين، ثم الهيليوم، ثم الكربون، ثم الأكسجين، ثم السيليكون، ثم الكبريت حول قلب من نوى ذرات الحديد. وعندما تصل عملية الاندماج النووي إلى إنتاج الحديد، تتوقف العملية بالكامل وينفجر النجم لتتأثر أشلاؤه في صفحة السماء وأهمها الحديد، الذي تصل شظاياه إلى مختلف الأجرام السماوية التي تحتاج إلى ذلك العنصر، بينما تتخلق العناصر الأعلى في وزنها الذري من نوى ذرات الحديد السابحة في صفحة السماء باصطيادها عددًا من اللبنات الأولية للمادة. وبذلك ثبت الأصل السماوي للحديد في أرضنا، بل في مجموعتنا الشمسية كلها، وأنه قد أنزل إلى أرضنا إنزالا مجازيًّا كما تخيل السابقون من المفسرين الذين وقفوا عاجزين عن تفسير إنزال الحديد إلى الأرض فقالوا: إن الفعل "أنزلنا" هنا قد يكون بمعنى "أوجدنا" أو "خلقنا" الحديد بتلك الصفات التي أعطته البأس الشديد والمنافع العديدة للناس. وجاء العلم

الحديد هو اللبنة الأساسية في بناء جزيء الهيموجلوبين أو المادة الحمراء في دم الإنسان. لولا الحديد في لب الأرض ما كان لها مجال مغناطيسي، ولولا المجال المغناطيسي للأرض ما استطاعت الإمساك بغلافها المائي، ولا بغلافها الهوائي، ولا بمختلف صور الحياة على سطحها.



الكسبي في قمة من قممه، مؤكدًا دقة التعبير القرآني الذي يقول فيه ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾(الحديد:٢٥)، ومؤكدًا أنه إنزال حقيقي وليس إنزالا مجازيًا.

ودفعت هذه الملاحظات العلمية الدقيقة بكل من علماء الفلك والطبيعة الفلكية وعلماء الأرض إلى التصور الصحيح، بأن أرضنا حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوى كومة من الرماد ليس فيها من العناصر شيء أثقل من الألومنيوم أو السيليكون، ثم رجمت تلك الكومة بوابل من النيازك الحديدية كما تصلنا النيازك الحديدية في أيامنا الراهنة تمامًا، ولكن بكميات أكبر بكثير. وبحكم كثافتها العالية وسرعتها الكونية الهائلة، أدى ارتطام تلك النيازك الحديدية بالأرض الابتدائية إلى رفع درجة حرارتها وحرارة النيازك ذاتها إلى درجة الانصهار، واندفع الحديد المنصهر ومعه بعض العناصر الثقيلة، مثل النيكل وبعض شوائب العناصر الخفيفة في سيول مندفعة إلى مركز الأرض من جميع الاتجاهات، على هيئة قطرات عملاقة من الحديد والنيكل، الذي كون لب الأرض بشقيه اللب الداخلي الصلب، واللب الخارجي السائل. وقد أدى ذلك إلى تمايز الأرض إلى سبع أرضين تتناقص فيها نسبة الحديد من الداخل إلى الخارج على النحو التالي:

١- لب صلب داخلي يمثل الأرض السابعة بنصف قطر يقدّر بحوالي (١١٧٠ كم)، وكثافة تتراوح بين (١٣,٥، ١٠) جرام للسنتيمتر المكعب، ويتكون أساسًا من الحديد بنسبة ٩٠٪ والنيكل بنسبة ٩٪ وعدد من العناصر الخفيفة من مثل السيليكون، والفوسفور والكبريت بنسبة ١٪.

٢- لب خارجي سائل (يمثل الأرض السادسة) بسمك يقدّر بحوالي (٢٣٠٠ كم) وبنفس تركيب اللب الصلب، ولكن في حالة مائعة (من عمق ٢٩٠٠ كم من سطح الأرض إلى عمق ٥٢٠٠ كم من سطح الأرض).

٣-٦- أربعة أوشحة متتالية (تمثل الأراضي من الثانية إلى الخامسة) تتناقص فيها نسبة الحديد من الداخلي إلى الخارجي باستمرار، وهذه النطق التي يبلغ سمكها (٢٣٠٠ كم) ممتدة من قاعدة الأرض الأولى إلى الأدوار العليا للب الأرض السائل، وتتكون من صخور عالية الحرارة تميع تحت الضغوط العالية.

وأحد نطقها يوجد في حالة لدنة شبه منصهرة ويمثل الأرض الثالثة التي تعرف باسم "نطاق الضعف الأرض".

٧- غلاف الأرض الصخري ويمثل الأرض الأولى ويقدر سمكه في المتوسط بحوالي (١١٠ كم) حيث يقدر سمكه تحت القارب بحوالي (١٠٠-١٥٠ كم)، وتحت البحار والمحيطات بحوالي (٦٥-٧٠ كم)، ويتكون أساسًا من السيليكات الخفيفة التي تتميز بدرجات انصهار منخفضة نسبيًا، والتي تزداد في الكثافة نسبيًا من السطح إلى العمق.

وتمثل عملية إنزال الحديد إلى الأرض وتمايزها إلى سبع أرضين واحدة من أخطر العمليات في تاريخ الأرض. فلولاها ما كانت الأرض صالحة للعمران. ويعتبر سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة التي لم يصل إليها علم الإنسان إلا منذ عقود قليلة، شهادة صدق كذلك بنبوة ورسالة الرسول الخاتم الذي تلقى هذا الكتاب الخاتم وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ومن المبهر حقًا، أن كتابًا أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، أنزل منجمًا آية آية، أو بضع آيات بضع آيات، وفي أحيان قليلة أنزلت السورة كاملة، ثم تم جمع هذا الكتاب بتوفيق من الله تعالى، وتم ترتيبه في سوره، وتسمية تلك السور وترتيبها بنفس النظام الموجود في بلايين النسخ من المصاحف المتوفرة في مكاتب العالم، وفي حوزة الأشخاص، وفي مختلف وسائل الحفظ الأخرى، وفي صدور البلايين من الأفراد الذين حملوه متواترًا عن رسول الله ﷺ بتوفيق من الله كذلك. ثم يحوي هذا الكتاب سورة باسم "سورة الحديد"

وهـو العنصـر الوحيـد الـذي أنزلت باسـمه سـورة من سور القـرآن الكريـم. وتتحـدث آية من آيات تلك السـورة عن إنزال الحديـد إلـى الأرض مـن السـماء -وهي حقيقة لم يصل إليها علم الإنسان إلا فـي العقود المتأخرة من القرن العشـرين- ثم تكتشـف أن رقم سورة الحديد يسـاوي الوزن الذري لأكثر نظائر الحديد انتشارًا، وأن رقم الآية في السورة يساوي العـدد الـذري للحديـد، وهذا التوافق لا يمكـن أن يكون من أمور المصادفة أبدًا.

فأكثر نظائر الحديد شيوعًا، يعرف باسم النظير ٥٦ ورمزه (٢٦ ^{٥٦}Fe)، وهو يشـكل حوالي ٩٢٪ (٩١,٦٦٪) من مجموع نظائر الحديد المعرفة، ويقدر متوسط وزنه الذري بحوالي ٥٦ (٥٥,٨٤٧)، ويبلـغ عـدده الذرى ٢٦، وسـورة الحديد رقمها فـي المصحف الشـريف ٥٧، وآيـة الحديد فيهـا رقمها ٢٥.

ولكـن إذا تذكرنا قول الحق تبـارك وتعالى مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسـوله ﷺ في قوله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(الحجر:٨٧)، أدركنـا أن القرآن الكريم بنصه، يفصل فاتحة الكتاب كمقدمة عن بقية الكتاب، ولما كان ترقيم سـورة القرآن ليـس توقيفيًا، فمعنى هذه الآية الكريمة أن أول سور القرآن الكريم هي سورة البقرة، وبذلك يصبح رقم سورة الحديد ٥٦، وهو الوزن الذري لأكثر نظائر الحديد شيوعًا. كذلك فإن عدد آيات الفاتحة ست آيات بعد البسـملة، والقـرآن الكريم يصفها بأنها (سـبعًا مـن المثاني)، ومعنى ذلك أن البسـملة هي أول آيات الفاتحة، وهي آية في كل سـورة من سـور القـرآن الكريم ذكرت فـي مطلعها، وقد ذكـرت فـي مطلع كل سـور القرآن ما عدا سـورة التوبة. فإذا حسـبنا البسملة على أنها هي أولى آيات سورة الحديد، صار رقم آية الحديد في السورة هو ٢٦، وهو العدد الذري لعنصر الحديد.

ومـن المعـروف أن معرفـة كل مـن الأوزان الذريـة والأعـداد الذريـة للعناصـر، هي من الأمـور المسـتحدثة فـي علـم الإنسـان، ولـم يكـن لأحـد وقـت تنـزل القـرآن الكريم ولا لقـرون متطاولـة من بعده، إلمـام بتلك الأمـور. وتوافق رقم سـورة الحديـد فـي القـرآن الكريم مـع الوزن الـذري لأكثر نظائـر هـذا العنصـر شـيوعًا، وتوافـق رقـم آية الحديـد التي تؤكـد حقيقـة إنزالـه من السـماء مع العـدد الـذري للحديد، لممـا يقطـع بـأن القـرآن الكريم لا يمكـن أن يكـون صناعة بشـرية، ويجزم بالنبوة والرسالة للرسـول الخاتم الذي تلقاه.

أما عن البأس الشديد للحديد، فقد ثبت علميًّا أن نواة ذرة الحديد هي أشـد نوى العناصر تماسـكًا بمعنى شـدة تماسك اللبنـات الأوليـة للمادة في نواة ذرة الحديـد عنها في نواة أية ذرة مـن ذرات العناصر الآخرة. ولعل ذلك من أسـباب تلك الصفـات الطبيعية والكيميائية المميـزة للحديد، والتي أعطته خاصيـة البـأس الشـديد. وأمـا من منافعـه للنـاس، فالحديد يمثـل عصـب الصناعات المدنيـة والحربية، كمـا يمثل اللبنة الأساسية في بناء جزيء الهيموجلوبين، أو المادة الحمراء في دم الإنسان وفي دماء الكثير من الحيوانات.

ولـولا الحديـد فـي لـب الأرض مـا كان لهـا مجـال مغناطيسي، ولولا المجال المغناطيسي للأرض ما استطاعت الإمسـاك بغلافها المائـي، ولا بغلافها الهوائي، ولا بمختلف صور الحياة على سطحها. ■

(*) أسـتاذ علـوم الأرض ورئيـس لجنـة الإعجـاز العلمي بالمجلـس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

د. أحمد منصور*

مركزية المعيار الأخلاقي في الاقتصاد الإسلامي

إن العلاقات التي تتشكل على وفقها العلوم الطبيعية، تقع في مصاف العلاقات السببية، وهناك علوم مستحدثة لدراسة القياس الاقتصادي وفق نماذج قياسية تستخدم أدوات التحليل الرياضي والقياسي، وتصل إلى نتائج تحتمل نسبة من الخطأ المسموح به. أما العلوم الإنسانية فهي خاضعة لمعيار القياس الأخلاقي الذي لا يمكن أن ينطوي تحت طائلة الأدوات القياسية الكمية. ومن هنا، فإن السلوك الأناني الاقتصادي الاجتماعي السياسي الأخلاقي لا يمكن ملاحظته خارجيًّا فحسب، بل لابد من فهم الأحاسيس الداخلية التي هي مرجعيتها العقدية والأخلاقية. ويترتب على هذا في التحليل الاقتصادي الإسلامي أن تكون "الاستقامة" معيارًا لمدى تطابق الأحكام القيمية الإسلامية والتحليل الاقتصادي، سواء على مستوى التحليل الجزئي الذي يهتم بسلوك الأفراد والمؤسسات أم على المستوى الكلي الذي يهتم بالنشاط الاقتصادي على المستوى القومي، على عكس التحليل الاقتصادي الوضعي الذي يرى في الموضوعية العلمية الناتجة عن التجريبية هي المعيار لما تمثله الموضوعية من ترجمة للنوازع الفردية والجماعية، بغض النظر عن البعد القيمي العقدي والأخلاقي. لقد أدى معيار نجاح الفعالية الاقتصادية على المستوى الفني في تعظيم الربح بالنسبة للمنتج وتعظيم المنفعة بالنسبة للمستهلك، إلى الاستعانة بالأدوات الرياضية لتحقيق قدر ممكن من مصداقية التنبؤ الاقتصادي. ولم يصبح التنبؤ الاقتصادي ظاهرة اقتصادية موضع تقدير كامل، إلا بعد أن وضعت النماذج الكاملة الاعتبار للاقتصاد القياسي.

فالمتغيرات الاقتصادية تستند إلى تقديرات بشرية، تساندها معرفة إحصائية عن مثل تلك العلاقات -بين المتغيرات- في الماضي. والمتغيراتُ يمكن أن تخطئ، والارتباط يمكن أن يتغير. فضلا عن ذلك فإن قوى كثيرة من تلك التي تُحدث التغيير لا يمكن التنبؤ بها.

فعندما توضع الحاكمية معيارًا للسلوك الإنساني بمرجعيتها الشرعية والتي رأسها إرادة الله في خلقه، والمتمثلة بصيغة عقدية بين الخالق والمخلوق في شؤون العبادة والأخلاق، يكون المعيار في الحكم هو الإتقان ومنع الفساد في فعاليات الحياة الدنيا، كما يأتي معيار الحاكمية في سياق العلم والفقه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:٨٣). فالمعيار في الأحكام الشرعية هو مدى وضعها في حيز التطبيق على مستوى الفرد والأمة والنظم. وحتى تسهل مهمة نفاذ المعيار للأحكام القيمية للنظام الإسلامي، والذي يأتي النظام الاقتصادي جزءًا من هذا النظام جاء جهاز الحسبة التنفيذي لتدعيم المعيار الأخلاقي ونفاذه في السوق، بحيث يمارس هذا الجهازُ دورَ الرقابة المركزية في الحفاظ على التوازنات في المعاملات، وتقيدها بأحكام المعاملات المعروفة في القانون الإسلامي. وهذا

الواقع الموضوعي هذا، يتطلب من الفرد أن يكون سلوكه عقلانيًّا، وأن الأهداف تحدد مستقبلا وهي -أي الأهداف- لا تخرج في أي حال من الأحوال عن أطر تعظيم المنافع -المنافع والأرباح- أي هناك غاية أو هدف. وليس من المفروض تسويغ الأسلوب للوصول إليه مثل إحداث بطالة كي يتراجع معدل التضخم أو إشعال حروب إقليمية أو دولية محدودة أو واسعة لتنفيق الإنتاج العسكري، أو إتلاف بعض المحاصيل للمحافظة على مستوى محدد من السعر لمحصول معين. هذه الأساليب وتلك الغايات من المؤكد أنها تنشط من فعالية الاقتصادات الوضعية. فالعلماء يهدفون للإجابة على الأسئلة الوضعية من خلال ربط تلك الأسئلة بالأدلة والشواهد. وهذه الأدلة والشواهد تنقل الاقتصادات الوضعية إلى وضعية ديناميكية -حركية- على الرغم من الأعراض الجانبية السيئة التي تتركها معدلات النمو والتنمية الاقتصادية من بطالة وهدر في تخصيص الموارد والإضرار بالبيئة، والدورات الاقتصادية التي تؤدي إلى حالات من الركود والتضخم أو كليهما معًا، مع سوء في توزيع الدخل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(البقرة:١١-١٢). وبناء على ذلك، فالمعيار في الاقتصاد الوضعي هو الانتقاء للسياسات التي تخدم الأهداف التي تسعى إليها المؤسسات العملاقة التي لا يوجد في قواميسها أية أحكام قيمية. فليس هناك مُنتَج مفيد أو مُنتَج مضر ومدمر، بل هناك مُنتَجُ الطلبُ قائم عليه في السوق. ولا توقّف في النمو على الرغم من تدمير جزء من البيئة، لأن الهدف هو تعظيم الأرباح: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(الجاثية:٢٣).

إذن الحاكمية ومعيارها في الاقتصاد الوضعي هي السوق، هذه المؤسسة هي التي بنى "آدم سمث" فروضه النظرية على أساسها. ففي كتابه "نظرية المشاعر الأخلاقية"، يرى أن كل رجل هو أنسب قاض للحكم على أعماله الخاصة، وأن كل رجل بالطبيعة قد تُرِك في الدرجة الأولى وأساسًا ليدبر أمر نفسه. فالمجهود الذي يبذله الإنسان لإشباع رغباته الخاصة، تقوده يد خفية ليصل إلى غاية لم تكن جزءًا من مقصده، إنه تفاعل كيميائي غامض في الصالح الاجتماعي، وهو إحسان إلى المجتمع بهذا النظام البسيط للحرية الطبيعية، بل



الكلام لا يخل بعلم التحليل الاقتصادي الإسلامي. إن هدف التحليل الاقتصادي الإسلامي هو التعرف على آليات القوانين الاقتصادية، وتأثير الظاهرة الاقتصادية في الظاهرة الاقتصادية الأخرى ونتائج هذا التفاعل. كل ذلك يتم في ظل منظومة قيمية هي المعيار في مدى نفاذ الشريعة الإسلامية في آليات التحليل الاقتصادي الإسلامي. وهي في كل الأحوال ليست قيدًا، بل هي حرية منظمة لضبط الفعالية الاقتصادية وتخصيص الموارد وتنظيم الاستهلاك والإنتاج والتوزيع والتبادل.

اقتصاد المصلحة وضياع القيم

في منهج التحليل الاقتصادي الوضعي، يرصد الباحث الاقتصادي الواقع على وفق الرؤية الموضوعية التي ترى أن الفرد في المجتمع يندفع نحو الأنشطة التي تدر منافع بأقل التكاليف، سواء أكان الفرد هذا منتجًا أم مستهلكًا. وبوصف

إن العفوية التي خلقت هذه المؤسسة (السوق) هي تقسيم العمل، والميل الطبيعي الذي اقترن به، وهو مقايضة الشيء ومبادلته بشيء آخر. ويمكن إجمال العناصر الأساسية -التي يمكن القول إنها العناصر الفاعلة والديناميكية- في العناصر الثلاثة الآتية:

• فكرة القوى الأساسية التي تحرك الحياة والجهود الاقتصادية، والتي تتجسد في النظام الاقتصادي.

• كيفية تحديد الأسعار وتوزيع الدخل والنتائج على شكل أجور وربح وريع.

• السياسات التي بموجبها تدعم الدولة وتعزز التقدم والرخاء في المجال الاقتصادي.

وهذه العناصر الثلاثة السابقة تتمحور حول المصلحة الذاتية التي هي الدافعية للنظام الاقتصادي، والمجسدة للديناميكية الاقتصادية والسوق الذي ينقل المصلحة الذاتية بفعل اليد الخفية إلى المصلحة العامة، من خلال التبادل وحرية التجارة. كل ذلك ما كان ليحدث لولا الثورة الصناعية التي شهدتها أوربا بعامة وإنكلترا بخاصة والتي أوجدت تقسيم العمل وتبدلات جوهرية في علاقات الإنتاج، وتراكمًا مع تركز في رأس المال الناتج عن سوء عدالة توزيع الدخل. وقد أسهمت ثورة عام ١٨٤٨م في تنبيه المجتمع على هذه الحقائق، فكانت احتجاجًا على مغادرة أوربا للأخلاق التي انعكست في مزيد من السوء في علاقات الإنتاج والتوزيع.

الفعالية الاقتصادية الإسلامية

في النظرية الاقتصادية الإسلامية لابد من الدخول إلى الفعالية الاقتصادية الإسلامية في النظام الاقتصادي المرتبط بالأحكام الشرعية الآمرة والناهية، كذلك جانب التحليل الاقتصادي من الفعالية الاقتصادية. وهذا أمر مرتبط بالمسلمات، وهي عبارات وصفية عن الكون أو الإنسان أو المجتمع، تقبل بوصفها نقاط انطلاق وتتخذ -صراحة أو ضمنًا- أساسًا لبناء العلم. هذه المسلمات تمثل مقاربات منطقية لعلم واحد باختلاف البيئة الاجتماعية. في الاقتصاد الإسلامي يتداخل النظام الاقتصادي مع التحليل الاقتصادي ليعمل

إن الشريعة الإسلامية تسيطر على صياغة المفاصل النظرية للنظام الاقتصادي، بحيث تنقل هذه السيطرة المركزية من الإطار النظري -النظرية الاقتصادية- إلى حيز التحليل الذي يأتي في سياق وضع الأسس النظرية في حيز التطبيق.

على ضبط الفعالية الاقتصادية. ومن خلال ضبط الفاعل (الإنسان) عبر التزامه بالأحكام الشرعية يتم التمييز بين ما هو حق وما هو باطل، وما هو محرم وما هو حلال. وهي في الحقيقة تشكل الأساس الحقيقي للدافعية في النشاط الاقتصادي، إذا ما تم تحصين الأفراد بحصن الأحكام القيمية ممثلة بالأحكام الشرعية، فسلوك الفرد الاقتصادي ليس حياديًا إزاء هذه الأحكام، فلا أنانية ولا احتكار ولا تسعير ولا استغلال. ضمن هذه التشكيلة يمكن النظر إلى النظرية الاقتصادية الإسلامية وديناميكيتها في وجود اقتصادي اجتماعي، للصعود بالإنسان إلى حالات أفضل من خلال النمو المتوازن بين حاجات الإنسان وتخصيص الموارد.

من حيث المبدأ وفي سياق التحليل الاقتصادي، فإن أسعار عناصر الإنتاج تتحدد في السوق، من خلال قوى العرض والطلب. وهذا يعني أن السوق في النظام الاقتصادي الإسلامي، هي التي تحدد توزيع عوائد الإنتاج بين العناصر التي ساهمت في وضعه، وهو ما يعرف بالتوزيع الوظيفي. وفي هذا السياق، فإن السوق مفهوم محايد من الناحية الفنية،. وهذه الحيادية سوف تسحب هذا المفهوم على كل النظم الاقتصادية، إلا أن هذه النظم سوف تتضح خصوصياتها من خلال العقائد والأفكار والأيديولوجيا التي تعتنقها الجماعات في صياغة مفهوم السوق من الناحية الأخلاقية، التي تعكس قوانين التعامل والقواعد المتبعة في سياق آليات السوق، وهي نفس الآليات التي تحكم أسواق النظم الاقتصادية كلها. وتظهر الديناميكية في الاقتصاد الإسلامي، وكذلك الاقتصاد الوضعي عبر آليات أسعار عناصر الإنتاج في السوق، التي تنعكس على تحديد دخول أصحاب عناصر الإنتاج. فكلما كانت الأسعار مجزية بالنسبة لأصحاب عناصر الإنتاج، حفّز هذا على زيادة عرض هذه العناصر عبر زيادة الإنتاج والتي تعمل على زيادة دخولهم، أي زيادة الدخل القومي من طرف، ومن طرف آخر سوف يحدد تخصيص الموارد المتعددة بين الاستخدامات المختلفة، إلا أن الديناميكية التي

تأتي عبر جهاز السعر في السوق سوف تظهر الاختلاف بين النظم الاقتصادية المختلفة.

الشريعة الإسلامية في علاجها لمفاصل النشاط الاقتصادي، لا تقف عند التوزيع الوظيفي أو الفني لدخول عناصر الإنتاج، بسبب أن هذا التوزيع يكون أحيانًا عاجزًا عن تحفيز الطلب الفعال في السوق -المحرك للديناميكية الاقتصادية- فجاء موضوع إعادة التوزيع عبر فروض شرعية واضحة وأعمال بر جاءت في سياق اجتهادات العقل المسلم لتوفير مستلزمات حد الكفاية بالنسبة للمستهلك في رفع دخول مَن هم دون مستوى حد الكفاية، لتمكينهم من المشاركة في الطلب على السلع والخدمات، هذا الطلب الذي يحفز تأكيد زيادة الإنتاج، فكانت الفروض في الزكاة والصدقات والإنفاق في سبيل الله، أو أن إعادة التوزيع يأتي عبر دور الدولة الاقتصادي في المجتمع المسلم. فالدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي ليست دولة سلبية لا تهتم إلا بالشؤون الإدارية والسياسية، إنما هي دولة فاعلة وحاضرة على الساحة الاقتصادية، وهي توظف فعاليتها وحضورها لخدمة الأفراد ومساعدتهم في القيام بأعباء الإنتاج والتنمية.

إذن، إن الشريعة الإسلامية تسيطر على صياغة المفاصل النظرية للنظام الاقتصادي، بحيث تنقل هذه السيطرة المركزية من الإطار النظري إلى حيز التحليل الذي يأتي في سياق وضع الأسس النظرية في حيز التطبيق.

عمارة الأرض والعدل

تبرز من خلال الفعاليات الاقتصادية الموجهة بالشريعة الإسلامية مسألتان مهمتان هما: عمارة الأرض، والعدل. عمارة الأرض فروض واجبة، بل هي عبادات. والعمارة تأتي من خلال الجهد الإنساني (العمل) حيث يتداخل المردود من جراء العمل إلى ما هو أجر في الحياة الدنيا وثواب في الحياة الآخرة الأبدية. وفي عمارة الأرض تدخل الفعاليات الاقتصادية حيز السلوك الفاعل، وحتى لا تؤدي هذه الفعاليات إلى حصول صراعات من أجل الاستئثار بالكسب، جاءت الشريعة الإسلامية بأحكام قيمية، تنظّم سلوك الأفراد والجماعة في النشاط الاقتصادي كما في الأنشطة الأخرى. وتأتي الديناميكية الاقتصادية من خلال التفصيل الذي جاءت به الشريعة الإسلامية في إطار العبادات والمعاملات.

فهذا الاتساق بين ما يقرر الشارع نشاط البشر كفيل بإحداث العدل من خلال فعاليات عمارة الأرض عبر المعاملات. هذا جلّه يصبّ في هدف سامٍ هو العبادة والتوحيد. هذا الاتساق يحدث نوعًا من التخصيص الرشيد للموارد حيث لا تبذير ولا تقتير، بل عدل ووسطية في الاستخدام. هذه الوسطية تلغي مسألةً شغلت الفكر الاقتصادي الوضعي؛ وهي المشكلة الاقتصادية.

المشكلة الاقتصادية في ظل المفهوم الإسلامي

المشكلة الاقتصادية في ظل المفهوم الإسلامي، هي ليست هناك ندرة في الموارد -على إطلاقها- بإزاء الحاجات غير المنضبطة، إنما الندرة -إن وجدت- فهي ندرة في المستخدَم من هذه الموارد بإزاء حاجات غير منضبطة (أبو الفتوح، ١٩٩٤، ٢٣٠)، ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٢-٣٤). هذا التسخير يقابله التوازن والوسطية في التخصيص الرشيد للموارد فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(الشورى:٢٧). فلا كسب بدون عمل، والتسخير من الله سبحانه مقدر ﴿بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ مما يصلح أمور الناس ولا يطغيهم. وهذه بحد ذاتها الحركية الاقتصادية من خلال التخصيص الرشيد للموارد طبقًا لما سخر الله من موارد. وكل مسلم ينبغي له أن يعتقد أنه لابد أن يكون وضع الرزق في معاييش الناس على هذا النحو من السعة والضيق لصالح المجتمع وأمنه، فلا مجال في سعيهم ونشاطهم للبغضاء والشحناء ولا للحسد والحقد. والسبيل إلى الانتفاع بنعمة الله في المال بعد الجهد، وإعداد النفس للسعي هو التوجه إلى الله في إخلاص وفي عمل صالح. ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(النساء:٣٢). ■

(*) جامعة الموصل، كلية الإدارة والاقتصاد / العراق.

أ.د. عماد الدين خليل*



مرئيات في الجمالية الإسلامية

فكرة التوافق الإنساني مع الكون والنواميس، فضلا عن كونها واحدة من أكثر المبادئ في التصور الإسلامي خصوصية وأهمية، فإنها ترتبط بالمسألة الجمالية ارتباطًا وثيقًا، ذلك أن الوفاق يتضمن في تصميمه -ابتداء- بُعدًا جماليًّا، هو بُعد التساوق والتناغم والانسجام والتوحد والاندغام بعد النغمة التوافقية والإيقاع المرسوم والتنسيق الشمولي، الذي يضع كل شيء وكل كائن في مكانه المحدد، ويمنحه دوره الهادف على خارطة الوجود الكبير بعد الروافد التي يتدفق ماؤها الفرات، يتقافز ويتلامع هنا وهناك متمردًا متباعدًا عاصيًا -كما قد يبدو للوهلة الأولى- ولكنه في المنظور الأخير، يتقارب ويتعانق وينضاف بعضه إلى بعض، لكي تصب كل قطرةٍ منه في بحر الوجود الكبير.

إن الله هو البدء والمنتهى، وهو الظاهر والباطن، وإليه -وعلى تغاير الأحوال والمجريات والحركات- يرجع الأمر كله، وفي هذا ما يمنح الجمالية الإسلامية ساحة ليست كالساحات، ومدى في الزمان والمكان ليس كالأمداء.

والذي نود أن نخلص إليه ها هنا، أن في مقابل هذا كله، سعيًا إيمانيًّا للتوافق باتجاهات أخرى لا تقل أهمية وتأثيرًا. ولنأخذ مثلاً النفس الإنسانية؛ فإذا كان التوافق في قاعدته العريضة تلك، يتطلع صوب الآفاق، فهو هنا يمضي عمقيًّا صوب النفس، لكي يمنحها كل ما يتجاوز بها التبعثر والتشتت والتمزق والارتطام، ويعيدها إلى سويتها المطلوبة، إلى توازنها وفاعليتها والتئامها، إلى تساوقها مع العالم من جهة، ومع حشود مفرداتها الذاتية من جهة أخرى.

إن الجمالية الإسلامية، تنطوي على وفاق مدهش بين سائر الثنائيات التي مزّقت كيان الإنسان والعالم. وليس التناقض -مثلاً- بين الجماليات البورجوازية والماركسية،

وبينهما وبين الدينية النصرانية سوى نموذجين فحسب لهذا الانشطار. فهنالك أيضًا الذات والموضوع، الفرد والجماعة، الروح والجسد، الأرض والسماء، المحدود والمطلق، الضرورة والحرية، النظام والمرونة، المنظور والغيب.

وإذا كانت الجمالية النصرانية والدينية المحرفة عمومًا تنهج نهجًا مثاليًا، وكانت الجماليات الوضعية تلتصق بالواقع التصاقًا محمومًا قد يبعدها بالكلية عن المثل وعن انعكاساتها القيمية، فإن الإسلامية تتحقق بالتوازن ها هنا أيضًا في سياقِ احتوائها للثنائيَّات والتوفيق بينها؛ إذ تسعى لتحويل المثال إلى أمرٍ واقعٍ وفق صيرورة جادَّة يلتحم فيها المثالي بالواقعي.

وهكذا يبدو الجمال ها هنا ضرورةً من الضرورات، لأنه السبب والنتيجة، المقدمة والمعطيات، فهو الذي يُعِين النفس على التحقق بسويتها، وهو -الذي بتحقيقه هذا الهدف العزيز- يمنح الوجود البشريّ طبقات غنيةً مضافة من الجمال لحشود لا تعدّ ولا تحصى من الأبناء البررة المؤمنين الذين يحيون أقصى درجات الوئام والتناغم مع أنفسهم، وأعلى نغمات التوافق مع ذواتهم.

وإذا كان الجميل هو الرائع والبديع، والمدهش والمثير، والمتناسب والمتوافق... وإذا كان الإبداع يعني تكوين ما هو جميل ما يمنح الفرح والسرور، واللذة والغبطة، والانسجام والاستقرار، والتصالح والسلام، والمحبة والتوافق، والتوازن والتوحد، والامتلاء والاندماج ما يقف بمواجهة التناقض والتنافر، والتشتت والتمزق، والنقص والحزن، والخوف والقلق، والكراهية والتقاتل... إذا كان ذلك كذلك، أدركنا كم أن الفعالية الجمالية ضرورة من الضرورات في الحياة الإيمانية عمومًا، والإسلامية على وجه الخصوص، وأدركنا كذلك، لماذا منح كتاب الله وسنة رسوله هذه المساحات الواسعة للمسألة الجمالية، وهذا التأكيد المتواصل الذي يملك حضوره الدائم في نسيج المعطيات الإسلامية من أولها حتى آخرها، وأدركنا فوق هذا وذاك، كم أن المسألة الجمالية ترتبط عمومًا وبالمنظور الديني -على وجه الخصوص- بسلّم القيم الأخلاقية والسلوكية، وبالإطار الشامل للحق والخير؛ بحيث إنه ليس من السهولة بمكان، تصوّر نوع من الانفصال التام أو المطلق بين الجمال والقيم، إذ إنه حتى القائلين بهذا الانفصال من النقاد والأدباء والفنانين وفلاسفة الجمال، لا يستطيعون أن ينكروا بأن الجمال لا يمكن إلا أن يمنح الإنسان واحدة أو أكثر من القيم التي ألمحنا إليها قبل قليل، ولا يمكن أن يعطيه متعة فنية خالصة بعيدة عن أيّما تأثير على تكوينه الذاتي ونزعاته الأخلاقية.

لقد جاء الدين لكي يعيد الوفاق إلى العالم إلى الإنسان، لكي يحقق السوية الموزونة للوجود الكبير بقطبيه الإنسان والعالم، وليس ثمة كالجمال وسيلة للتحقق بهذا الهدف العزيز.

إن الغربيين عمومًا يرفضون الرؤية الدينية للجمال. فما قاله قدّيسون كـ"أغسطين" و"الأكويني" وغيرهما، أصبح تاريخًا لا واقعًا متحققًا أو معطى يطمح للوصول إليه. إن هذه الرؤية ترتبط عندهم بالنصرانية المحرفة المرفوضة، النصرانية التي فقدت فاعليتها وقدرتها على التواصل مع الحياة والارتباط بالأرض. وهذا يجعلنا نتشبث أكثر بتحقيق الترابط بين الدين والجمال، بين الإيمان والإبداع، لئلاً يخسر الإنسان ما يمكن أن يقدمه الدين الحق للمسألة الجمالية. ولأن الدين الحق في أساسه، يسعى من أجل التحقق بعالم جميل، عالم متوافق يسود التناسق والتناظر والوئام كل جزئياته ومساراته، إنه انبثاق عن الإرادة الإلهية المبدعة، التدرج المرسوم من الجمال المادي إلى الحسي، إلى العاطفي الوجداني، إلى العقلي، إلى الروحي الذي يعرف كيف يكسر مغاليق الدنيا ويفتح بوابات الكون على مصاريعها.

إن الإسلام يحركنا بهذه الاتجاهات كافة لأن تكشّف جماليات الإبداع الإلهي في العالم والوجود من جهة، ولأن وحدة الإنسان والسعي في الاستجابة لمطالبها كافة من جهة أخرى، ولأن تحقيق الوفاق والانسجام بين القطبين الإنسان

والعالـم مـن جهـة ثالثة تهمّـه إلى حد كبيـر، بـل هي واحـدة من أهـم أهدافه على الإطلاق.

وهذا لا يعنـي بالضرورة، أن يرغم المؤمنـون على أن يكونـوا جميعًا أدباء وفنانين، على أن يتلقى كل واحد منهم أمرًا بالإبداع. فإن التعامل الجمالي مع العالـم والوجـود درجـات ودرجـات، وهـي -عمومًـا- يمكـن أن تنطـوي تحت نمطين أساسـيين؛ أولهما مفتوح للمؤمنيـن كافة، وهو مـا يمكن اعتباره تعاملاً عيانيًّا سـلبيًّا مع الجمال، بمعنى أنه غير منتج بالمفهوم الحِرَفي للكلمة، وليس بمعنى أنه غير ذي مردود على نفس المتلقي.

لقد جاء الدين لكي يعيد الوفاق إلى العالم إلى الإنسـان، لكي يحقق السوية الموزونـة للوجـود الكبـير بقطبيـه الإنسـان والعـالم، وليـس ثمة كالجمال وسـيلة للتحقق بهذا الهدف العزيز.

إن النمـط الآخـر مـن التعامـل الجمالـي وهـو التعامـل الإيجابـي المبـدع، أي الذي ينتـج أعمالاً، مـا كان يمكن أن يكـون لولا وجود هـذه الطبقة أو الدائرة الأوسـع التي تتلقى التأثيـرات الجمليـة، فتعايشـها وتعاينها وتنفعـل بها، فتضيف إلـى خبراتهـا وتجاربهـا رصيـدًا ذا قيمـة كبيرة. وهـذا النمط الإنتاجي يقتصر -كما هو واضح- على دائرة الأدباء والفنانين الذين يتلقون الإشـارة عن العالـم الذي أبدعه الله ﷻ، يتلقون النغمـة والحركة واللون والصوت، ويعاينـون الكتل والأبعاد والنواميس فيؤلفون ويبدعون.

وفي كل الأحوال، يبدو التعامل الجمالي مع العالم -كما قدمنا- ضرورة من ضرورات الحياة الإيمانية، لأنه يعينها على التحقق بسـويتها، ويغنيهـا بالمزيد من الرصيد المذخور، وإذا كانت تعاين وتتلقى وتنفعل، أم تنتج وتبدع وتعطي، فإن الأمر سواء في نهاية التحليل.

وقد يكون من فضول القول، التأكيد على أن هذا المنظور الإيمانـي الشـامل للوفـاق، والـذي تعيـن عليـه المعطيـات الجمالية، سينطوي بالضرورة على واحد من أكثر صيغ الوفاق أهمية وإلحاحًا، ذلك هو الوفاق الاجتماعي.

فـإن وفـاق الفرد مع ذاتـه وتناغمه مع العالـم والكون، لا يمكـن أن يقطعهـا تنافـر أو اصطراع اجتماعـي يقبل المنظور الإسلامي إقرارهما في ساحة الحياة. إن هذا يمثل -فضلاً عن ارتطامه ببداهات الأخلاقيات الإسلامية- ارتطامًا أشد وأنكى بصيرورة الحياة التـي جاء هذا الدين، لكـي يصوغها ويقودهـا وفق أكبر قدر من التناسب والتلاحم والاندماج.

ومن بداهات الأمور، أن هذا الدين جاء منـذ لحظات تنزّلـه الأولى، لكي يعلـن الحـرب علـى التفتّـت الطبقي، علـى تمركـز الثـروة فـي مسـاحات وبقـع ضيقـة مـن نسـيج المجتمـع، وضيـاع المسـاحات الأخـرى فـي الفقـر والحرمـان. إن اسـتقطابًا خاطئًا كهذا، يتجـاوز تدمير القيـم الأخلاقية إلـى وقـف حركـة الإيمان نفسـه عن التحقق والانتشـار. فما لم يجد الناس حـدًّا أدنى من الكفاية، فإنهـم -في الأعم الأغلب- لن يكون بمقدورهم التوجه إلى السماء.

إن الوظيفة الاجتماعية للجمال تتأكد إسلاميًّا، استنادًا إلى هذه البداهات. فإن هذا الدين لا يمكن أن يرضى عن قصيدة أو عمـل أدبـي أو فنـي -أيًّا كان- يتغنى بالتـرف ويصبّ جامّ غضبـه على الفقراء والمعدميـن. إن حالة كهذه، إذا ما حدث وأن شهدها تاريخنا، تتكرر المرة تلو المرة، فإن هذا لن يخرج عـن نطاقه التاريخي الصـرف، ولا يمكن أن ندين العقيدة من خلال وقائع وممارسات لم يكن للعقيدة دور في تشكيلها.

هذه مسـألة بدهية، وإن الجمالية الإسـلامية لتلتقي ها هنا مع سـائر الجماليات الواقعية والواقعية الاشتراكية في نزوعها الالتزامي إزاء الجماعة، فهي جميعًا -كما يبدو- تمثل نضالاً مـن أجـل التغيير، ولكن إذ تتحدد الأولـى في دائرة اجتماعية طبقيـة ضيقـة نجـد الإسـلامية تتحرك فـي مدى العالـم كله، تغييـرِ العالـم وإعادة بنائه بشـكل متناسـق متوافق مع السـنن والنواميس.

إن الجمـال الإسـلامي إذ يرتبـط هـذا الارتبـاط الوثيـق بالمنظور الإسـلامي للوفاق الكوني، باعتبـاره قاعدة توافقية، فإنـه سـوف ينـداح باتجاه دائـرة شـاملة لا تـكاد الجماليات الأخرى تغطي سوى جانب محسور ضئيل منها.

ثمـة توازن من نـوع آخر نلحظه في الجمالية الإسـلامية، وطالمـا كان مثـارًا للجدل والنقاش في المذاهـب الأخرى، ذلك هو ما يسـمى بمعضلة الشـكل والمضمون، وهي مسألة



ترتبط بالمنظور النقدي كما أنها تتصل بالأسس الجمالية اتصالاً وثيقًا.

ابتدءًا، فإن الإبداع الأدبي والفني، يقتضي بالضرورة تأكيدًا متوازيًا على الشكل والمعنى معًا أو المبنى والمضمون، وإلا فقدَ خصائصه الجمالية. ومعروف أنه بتضخيم المضمون على حساب التقنيات والأشكال، يفقد العمل تناسبه وشروطه الجمالية. ولكن ماذا في الحالة الثانية؟ والجواب أنه يغدو تزويقًا وتزيينًا، يصبح عملاً حرفيًا لا تشحنه الفكرة ولا تجري في شرايينه دماؤها، فتمدّه بالنبض والحرارة والحياة.

إن قدر ما هو جميل أن يمنحنا معاني وأشكالاً، أفكارًا وصورًا، أن يبني معماره من المادة المحسوسة والفكر غير المنظور، وبدون تحقق التناسب بين القطبين، فلن نكون إزاء عمل فني مؤثر وجميل، سنكون قبالة صنعة صرفة أو حشد من التعاليم قد تنطوي على قيمة ما، ولكنها تفتقد إشعاع الجمال المؤثر الذي يبهر الحس ويهز الوجدان.

إن الجمالية الحقة هي غير الأسلوبية أو الشكلية، إنها تنطوي على القيم الجميلة للشكل والمضمون معًا. وهذا التلاحم -بالنسبة للجمالية الإسلامية- لا يثير أية حساسية ولا يشكل أية معضل، تمامًا كما أنه ليس ثمة أية حساسية أو معضلة بالنسبة لسائر الثنائيات الأخرى التي بعثرتها المذاهب والأديان، وجاء الإسلام لكي يوحّدها ويلمّ شتاتها.

فإننا بمجرد أن نرجع إلى كتاب الله ﷻ، فسوف نجد في تراكيبه المعجزة، ذلك الوفاق المدهش بين الشكل والمضمون حتى في أشد آياته وسوره بُعدًا عن المنظور العقيدي للكون والحياة وقربًا من التشريع والتقنين. صحيح أن الهدف الأخير في نهاية المطاف هو منح الإنسان "التعاليم" و"القيم" التي تقوده عبر الصراط، ولكن هذا لم يدفع بمسألة الشكل إلى الخط الثاني أو يهملها، وإنما ظل التوازي قائمًا منذ فاتحة الكتاب وحتى آخر سورة فيه، وظل الإعجاز الأدبي مقترنًا بالإعجاز المضموني، لكي يدلاّ معًا على تفرّد هذا القرآن.

باختصار شديد؛ فإن الجمالية الإسلامية كما أنها تولي اهتمامها البالغ للخارج، للموضوع، لمطالب الجماعة وقوانين التاريخ وسنن الحياة، فإنها تتوغل عمقيًا لكي تمنح الأديب أو الفنان الفرصة نفسها، من أجل أن يعطي اهتمامه للذات المتفردة، وللقوانين الداخلية لمطالب العمل الجمالي وشكلياته وتقنيّاته. ولا يجد الأديب المسلم أبدًا ما يرغمه على التضحية بالشروط الجمالية لصالح المضمون، ولا ما يدفعه لتجريد أعماله من المعنى وتحويلها إلى تزويق صرف.

قد يقضي ظرف تاريخي ما، بتغليب أحد القطبين، الأمر الذي قد يؤثر على مطالب العمل الإبداعي، لكن القاعدة التي يكاد يتفق عليها المعنيّون بالأدب الإسلامي كافة، هو أن هذا الأدب لن يكون أدبًا بحق ما لم يضمّ جناحيه على الشكل والمضمون معًا.

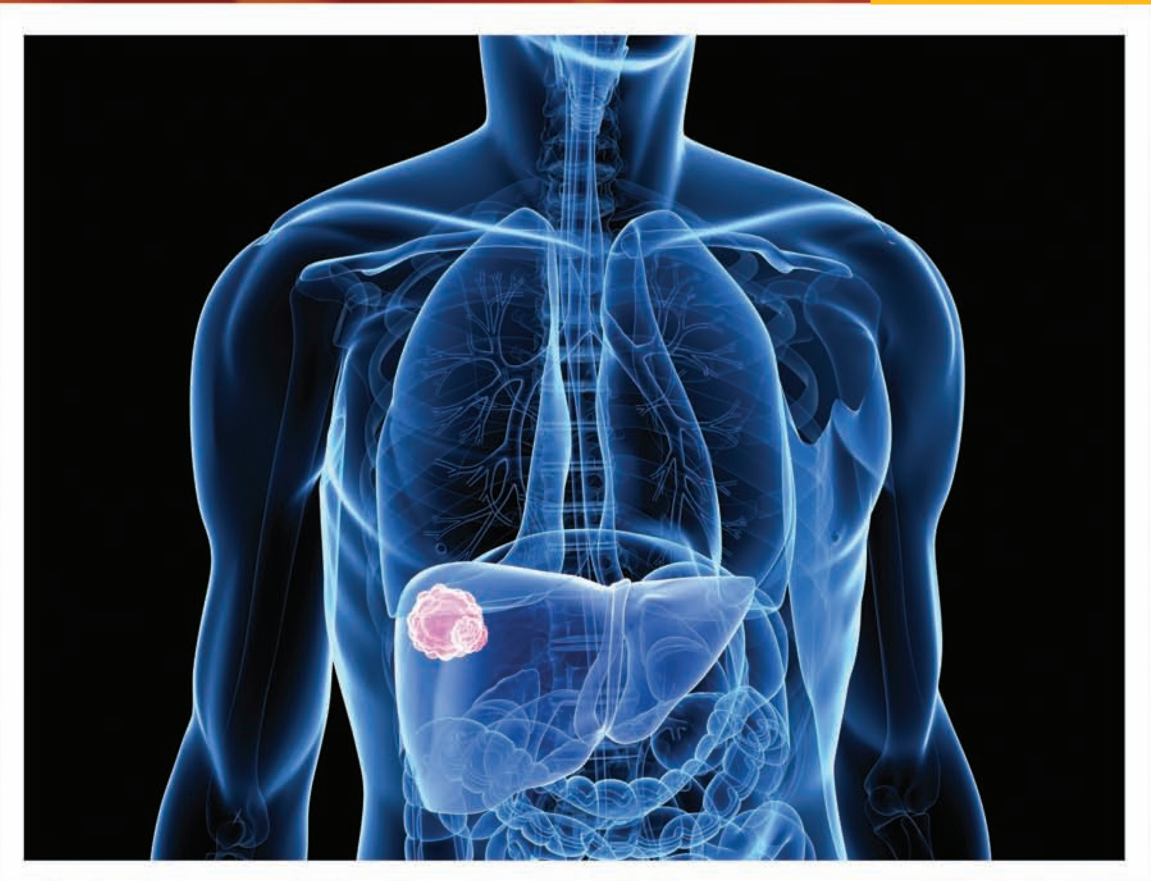
والجمالية الإسلامية تعكس -بالضرورة- بعدًا كونيًا في مواجهة الجماليات الوضعية، الإقليمية أو البيئية أو الاجتماعية أو الواقعية أو العرقية، وهي جميعًا جماليات تتموضع في مكان محدد بخلاف الجمالية الإسلامية.

وهي جمالية ذات بعد غيبي-روحي في مواجهة الجماليات الوضعية ذات المنظور المادي أو المرئي أو الحسي، الذي يتحرك على مستوى الطول والعرض دون أن ينفذ إلى الأعماق. في الميزة الأولى انفساح أفقي في المكان فيما وراء الحدود المتعارف عليها، وفي الميزة الثانية امتداد في العمق فيما وراء المنظور.

وبالرجوع المتذوّق إلى كتاب الله ﷻ، يجد المرء نفسه وجهًا لوجه إزاء الخصائص الأساسية للجمالية الإسلامية التي تتميز في هذا الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه عن سائر الجماليات. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

أ.د. عرفان يلماز*



أنا كبِد عبد اللّه

عزيزي عبد الله.. اسمح لي أولاً أن أحدثك قليلا عن نفسي.. أنا كبدك، مِن أهم أعضاء جسمك بعد القلب، ولكن أعمل بصمت ولا أصدر أصواتًا مثل القلب أو المعدة، كما لا أبث موجات كهربائية مثل الدماغ، ولعل هذا ما يجعلك تنساني في كثير من الأحيان. صحيح أني أقوم بدوري بصمت، ولكن هذا لا يقلل من شأني أبدًا، إذ أُعتبَر المختبر المركزي الذي يتحكم بكيمياء جسمك كله، فمن خلالي يمر الدم وينقّى من المواد السامة عبر آلياتي المختلفة. أرجو ألا تفهمني خطأ؛ فأنا لا أقوم بكل هذه الأعمال من تلقاء نفسي، لأني لا أملك العلم ولا الإرادة ولا الطاقة التي تكفيني لذلك، إنما أنا مكلَّفة فقط بالانصياع للأوامر التي وُجّهت إلي، وبتطبيق النظام الذي وُضع أمامي من قبَل خالقي العليم القدير. لستُ وحدي التي تعجز عن إدراك علم التفاعل الكيميائي فحسب، بل حتى الدماغ الذي يبدو وكأنه يتحكم بك لا يحظى بهذا العلم كذلك. وعلى الرغم من المستوى العلمي الذي بلغته الإنسانية في العلوم الطبية والبيولوجية، فإنها لم تكتشف بعدُ كل الأعمال التي أقوم بها.

وإني أستغرب كثيرًا من أولئك الغافلين الذين يزعمون أن مختبرًا بديعًا مثلي، أوجد نفسه بنفسه أو وُجد بمحض الصدفة،أيعقل هذا، بعد أن رأوا بأم أعينهم أن مختبراتهم لا تصنع نفسها بنفسها، وإنما تحتاج إلى مصمم لها؟!

الدماغ الكيميائي

إن لجميع الأعضاء التي تقوم بوظائفها في جسمك، علاقةً مباشرة أو غير مباشرة تربطها بي. فأنا أقوم بدور الدماغ الكيميائي. وعلى الرغم من عجزي، فقد كلِّفتُ بوظائف كثيرة تتطلب العلم الشامل في الحقيقة؛ كمراقبة بنية الدماء وتركيبها، ومتابعة جميع الاستقلابات الكيميائية وفي مقدمتها عملية الهضم، وإنتاج جميع الإفرازات التي يحتاج إليها جسمك. ولو حاولتَ تلخيص الوظائف التي أقوم بها، لاعترتك الحيرة ولَبقيت مندهشًا متعجبًا، ولَوجدتَ نفسك قاصرة عن إدراكي وفهمي. فلا يسعني ها هنا إلا أن أنقل إليك ما توصّل إليه علماء الكيمياء خلال بحوثهم عني، وهو أني موجودة شخصيًّا في صلب الحوادث التي تربو على الثمانين، وأُشرِف على تحقيق ما يزيد عن خمسة آلاف (٥٠٠٠) تفاعل كيميائي، وأتدخل فيها! شيءٌ يذهل العقل أليس كذلك؟ هذا فقط ما تم التوصل إليه حتى الآن، ولا زلتم -أنتم البشر- تجهلون التفصيلات الأكثر دقة فيّ.

إن آلاف التفاعلات التي أقوم بها تجري في تناسق وترابط كامل، وعلى شكل تغذية ومراقبة دورية مستمرة فيما بينها، على عكس أرقى المختبرات عندكم، التي تقوم بإيجاد بعض النتائج وبشكلٍ منفصل عن بعضها البعض. ولكن رغم بساطتي في الظاهر، أُعتبر أكبر عضو غددي في الجسم، وإني من ملحقات الجهاز الهضمي أزن حوالي كيلو وأربعمائة غ (١,٤)، ولوني بنّي أحمر، كما أني أنقسم إلى أربعة فصوص غير متساوية الحجم، وأقع في الجانب الأيمن من التجويف البطني تحت الحجاب الحاجز. وكوني أكبر وأثقل غدة للإفراز في جسمك، فيتم ربطي -بشكل متين- بأجزاء متنوعة لجدران الجسم بأوردة المساريقي، وذلك كي لا أنفصل عن مكاني وأُبْتَر خلال جريك وتقلّبك ولعبك كرة القدم، أو خلال قيامك بحركات رياضية مختلفة، هذا ما يجعلك تقوم بكل هذه الحركات بطمأنينة وراحة بال دون خوف أو وجل.

مختبر عظيم

يعتقد الكثير بأن عملي يقتصر على تكوين مادة "الصفراء" فقط، مع أن ذلك يمكن أن يكون من أبسط أعمالي وأقلها أهمية، كما كانوا ينظرون إليّ قديمًا كملحق لنظام الهضم، ويذكرونني دومًا كمُنْتِجةٍ لمادة "الصفراء"، غير أن هذه الرؤية فقدت مصداقيتها اليوم. فموضعي الإستراتيجي -كما يتقبله الجميع اليوم- هو أنني عضو في حُكم مختبر عظيم يعمل فيه كثير من المتخصصين الكيميائيين. تساهم الكلى في بعض أعمالي في تنقية الدم، ورغم إيجاد أجهزة الكلى الاصطناعية أو أجهزة غسيل الكلى، فلم يتم التمكّن حتى الآن من صنع أجهزة تقوم بأعمالي الخاصة بي، اللهم إلا عند الضرورة، فيتم زرع كبد بعض الحيوانات كحلّ مؤقت لتنقية دماء المريض.

ولابد أن أقدم لك بعض المعلومات عني، لكي تعي ضخامة الأعمال التي أقوم بها: إن الحرارة التي أنتجها أثناء عملي، تساوي ثلث الحرارة التي ينتجها جسمك إبان فترة إستراحته.

أتحلى بدورة دموية خاصة، ولأنني أقع في ملتقى الطرق، فإن الدماء القادمة من الأمعاء والمحملة بجزيئات الغذاء الممتصة، قبل دخولها في الدورة الدموية العامة تلتقي بالدماء القادمة من الطحال، ثم تمر بي مجتازة الوريد البابي، فأقوم عندها بتفتيش تركيبة الدم تبعًا لتنوع الأغذية ومقاديرها. ويمكن أن أشبه المرور الإجباري للدماء القادمة من الأمعاء بالتفتيش الجمركي. تبلغ نسبة الدماء القادمة إلي، والخاضعة لتفتيشي خلال ٢٤ ساعة، ٢,٠٠٠ لتر، كما أقوم خلال الـ(٧٠) سنة من عمرك، باستقلاب البروتينات والكربوهيدرات، فأنتج (١,٥) طنًا من البروتينات و(١٢,٥) طنًا من الكربوهيدرات ثم أفتِّتها أو أركّبها حسب حاجتك.

ضبط مقدار السكر في الجسم

إن الأعمال التي أقوم بها لا تعد ولا تحصى، وها أنا ذا أقدم لك -يا عبد الله- بعض العناوين عن مهامي العديدة:

فبالتعاون مع النخامة والبنكرياس والغدة الكظرية، أعمل على ضبط السكر الذي تسمونه بـ"استقلاب الكربوهيدرات"، وأضبط مقدار السكر المحترق بدقة عالية. وإذا أكثرتَ من تناول المعجنات أو الحلويات فإني أقوم بتحويل السكر الزائد إلى الغلوكوجين وأدخره، وعندما ينقص وَقودُك السكرُ بسبب تعرضك للجوع، فإني أقوم بتحويل هذا الغلوكوجين إلى سكر (غلوكوز) وأرسله ليمدك بالطاقة التي تساعدك على الحركة والنشاط.

وأنا أيضًا صاحبة قرار في عمليات استقلاب البروتينات التي تعتبر أحد العناصر الأساسية في جسمك. وأقوم بتوليد عدد كبير من الأنزيمات، وأثناء ذلك أستعمل جزيئات بروتينية عديدة ومتنوعة، كما أقوم بتزويد الدم بتوليد البروتينات الكثيرة

والخاصـة، وفي مقدمتها بروتين غامـا غلوبولين التابعة لنظام المناعة وبروتين الألبومين، كما أساعد على عملية تخثر الدم. أتولـى وظائف مهمة عديدة تتعلق ببناء كريات الدم الحمراء، وأقـوم بتخزيـن الحديـد اللازم فـي بنائهـا، وبالتالي أسـاعد الطحال في عملية تفتيت كريات الدم الحمراء بشكل مناسب عنـد موتها، حيث أخزّن الحديد الـذي تحويه هذه الكريات، لإعادته للدم مرة أخرى كي يقوم بوظائفه الضرورية.

عمر الصفراء

ولي في استقلاب الدهون أيضًا أعمال هامة وكثيرة، فبواسطة إفرازاتـي الصفـراء التي أنتجها، أسـهّل عليـك هضم الأغذية الدهنيـة التـي تتناولهـا، وأقـوم بتفتيت جزيئـات الدهون إلى جزيئـات صغيـرة لتأمين امتصاصهـا، تمامًـا كالمنظّفات التي تفتت البقع الدهنية وتزيلها، ويتم خلال ذلك أيضًا، امتصاص الفيتامينـات المنحلة في الدهـون كفيتامينات (A، D، E، K)، ثم أقوم بتخزيـن الفائض عن حاجتك من الدهون والفيتامينات، لأن الدهون مصدر هام للجسـم ولا سـيما لعضلات القلب.

أفـرز يوميًّـا ٨٠٠ - ١٠٠٠ مل من الصفـراء، ثم أقوم بتخزين عصـارة الصفـراء التي تمر عبـر أقنية من المـرارة إلى المعي الدقيـق، لتفريغها إلى الأمعاء الدقيقة عند وصول الطعام إليه، أي أفرز -وبشـكل مسـتمر- سـائلاً لزجًا ذا لـون ذهبي مائل للاخضرار، حيث ينتقل هذا السائل عبر الأنبوب (الواصل بين الكبد والأمعاء) للأمعاء ليقوم بدور مهم في هضم وامتصاص المواد الدهنية أثناء وصول الطعام إلى الأمعاء.

يتشـكل النسـيج الأساسـي لجسـمي الرتيب الـذي يبدو باللون البني القاتم، من الخلايا البطانية التي تشـكل شـرايين الدم، والقنوات الصفراوية، وخلاياي. وخلاياي التي تشـكل ٧٠٪ من نسيجي، تشارك في عمليات الاستقلاب بشكل أكبر عن بقية خلايا الجسم.

ولابـد هنـا أن نقف عنـد نقطة مهمة للغايـة وهي المكان الذي توجد فيه "خلايا كوبفر" (Kuppfer) في داخلي. تشتق هذه الخلايا من الوحدات الدموية، حيث تشـكل أكبر كتلة مفردة فـي الجسـم مـن الوحدات المقيمـة في الأنسـجة. وقد تزيل خلايا كوبفر كريات الدم الحمراء الهرمة والمتأذية والجراثيم والحمات الراشـحة ومعقدات ضـد الذيفانات الداخلية. كما أنها مكلّفة أيضًا بفحص وتفتيش خلايا الدماء المتولدة حديثًا من نخاع العظام أثناء مرورها بي واحدة تلو الأخرى. وعندما يتـم -أحيانًا- إنتاج خلايا دماء مشـوهة أو معطوبة أو فاسـدة أو ضـارة، فإنـي أضطرّ إلى الإمسـاك بهذه الخلايـا وتفتيتها، وإلا اندلعـت الفوضـى فـي خلايا الـدم. وعلى هـذه الوتيرة تعمل خلايا كوبفر؛ تمامًا كموظفي الجمارك، لا تقبل الرشوة أبدًا، إذ تسـأل كل خلية عن هويتها، وتقيس طولها وعرضها، فترسل السليمة منها إلى الدورة الدموية، وتقطّع المريضة منها مباشـرة، وأقـوم أنا بدوري بتخزين الأجـزاء القيّمة كالحديد، لاستخدامها عند الضرورة دون إسراف.

التخلص من المواد السامة والضارة

عزيزي عبد الله، اعلم أنك تستنشق كل يوم العديد من المواد السـامة من المحيـط الذي تعيش فيه فضلاً عـن الأغذية التي تتناولها، ولكن بعض هذه المواد تستخرجها خلال الاستقلاب الطبيعي. ولعلك تتناول الكثير من الأغذية الفاسـدة والملوَّثة بالجراثيم أو الفطريات، فتأكل وتشـرب دون أن تعلم فسادها أو تلوثهـا، لأن طعمهـا لم يكن قد تغيـر بعد، وكان ينبغي ألا تعيش طويلاً مع هذه المواد السـامة، ولكن ربنا تبارك وتعالى الـرؤوف الرحيـم كلّفنـي بحمايتك منها؛ حيث أقـوم بالتقاط المركبات السـامة المختلطة بالدم فأفتتها إلى أجزاء لا يمكن التعرف عليها وأزيلها -بذلك- أو أعطّل مفعولها.

وعندمـا تضطـر -يا عبـد الله- إلى اسـتخدام أدوية عديدة ضـارة وسـامة فـي كثير مـن الأحيـان، فأسـعى مباشـرة إلى إزالـة وإفسـاد تأثيرها السـام. كمـا تقوم بعض الأمـلاح التي أنتجهـا فـي الصفـراء، بطرح فضـلات الاسـتقلاب والأدوية والمـواد السـامة إلى خارج الجسـم. ولكـن إذا تعرّضتُ إلى مواد سـامة تفـوق طاقتي فلم أعـد عند ذلـك التحمّل فأطلق إشارات الإنذار، وناجي بصوتي الخافت النجدة! النجدة! إني أمـوت! أنقذوني!.. وسـرعان ما يتغير لونـي فيبدو الاحمرار على راحتيك، وتبدأ بحكّ جلدك، عندها اعلم أني أعاني من مقاومة السم. لذلك أرجو منك يا عبد الله أن ترحمني وتعتني بمأكلك ومشربك.

أمـا بالنسـبة لبروتيـن الاسـتقلاب، فإنـي أبـذل قصـارى جهـدي فـي حـرق النفايـات النتروجينيـة والأصبـاغ الناتجة بنسـب مختلفـة، وأقـوم بطرحهـا خارج الجسـم عـن طريق الجهاز البولي قبل أن تتحول إلى مادة سـامة، وأتمكن بذلك بتنقية الدم.

اليرقان

وكوني أتحمل مسؤولية أداء وظائف متعددة وهامة، فإني أتأثر -وبكل سهولة- من أدنى خلل يحدث في جسمك؛ فأول ما أتعرض إليه هو اليرقان أي مرض الصفراء، حيث يظهر اصفرار في بياض العين والجلد عامة نتيجة تراكم صباغ معيّن يدعى البيليروبين في الدم والأنسجة. وأشدُّ ما أخشى منه هو الفيروسات، لا سيما فيروس التهاب الكبد (B) و(C) التي تفقدني قدرتي على أداء وظائفي وتتلف خلاياي. وأكبر سبب يؤدي إلى ضعفي هذا، هو تناول الخمر والكحول، حيث أُصاب بإرهاق شديد وأنا أعمل على تعطيل مفعول أقل كمية من هذه الكحول. وفي حال نمو فيروس التهاب الكبد أُصاب بعدوى فيروس التهاب الكبد الوبائي (سيروز) وينتهي أمري.

غير أني قبل ذلك، أطلق إنذارات عديدة وعلى أشكال مختلفة تحت اسم "فشل الكبد". وفي طليعة هذه الإنذارات؛ تقيحات الجلد المختلفة، واضطراب المعدة والأمعاء، والإصابة بالنعاس بعد الطعام، والصداع، ولكن يتغاضى عنها الكثير من الناس لخفة وزنها بين الأمراض. ونظرًا لوظائفي التي أقوم بها، أجرى العلماء فحوصات عليّ فاقت المئة، فحوصات تتعلق بعملية البروتينات، والدهون، والكاربوهيدرات، واستقلاب المرارة، واستخراج الأدوية والمواد السامة من الجسم. وقد توصّل العلماء إلى حقائق شتى متعلقة بي إزاء التحاليل البولية والدموية التي أجروها في مختبراتهم، كما تم استخدام تقنيات أخرى كالمسح التوموغرافي (الأشعة المقطعية) والسينتيغرافي (التصوير الومضاني) والبيوبسي (تحليل الخزعة)، وذلك من أجل الحصول على تحاليل متطورة ومتقدمة.

الكبد تجدد نفسها

عزيزي عبد الله.. اعذرني، لعلي أفسدت عليك راحتك بالحديث عن أمراضي، ولكن ما ذكرتُ لك كل ذلك إلا لتعي الحقائق التي خلقتْ من أجلك. هوّن عليك قليلاً واطمئن بالاً، لأني سأخبرك بشيء ينسيك كل السلبيات التي ذكرتها لك؛ فهل تعرف أني عضو أجدد نفسي دائمًا وبشكل تلقائي؟ ما رأيك، أوليست هذه المعلومة سارة؟ ولو لم أكن كذلك لمتّ من أول إصابة. ولكن ربي الذي أحاط برحمته كل شيء، منحني قابلية التجديد لأبقى نشيطة ومن ثم لأكافح المئات من المواد السامة ولأقوم بإعداد التفاعلات لآلاف المواد الأخرى. فمثلاً، عندما أصاب بالتهاب الكبد أفقد ٩٠٪ من خلاياي، ولكن إذا استرحتَ جيدًا ثم حرصتَ على الحمية، فأستطيع عندها وبجزئي الـ١٠٪ المتبقي، أن أنقذ حياتك بإذن الله، ولكن إذا استهنتَ بالمرض واستصغرته ثم عدلتَ عن الاستراحة، فإنك تكون قد دخلت في طريق لا رجعة فيه يودي بحياتنا معًا.

أنصحك يا عبد الله أن تعتني بالنظافة جيدًا، لأن السبب الأول في التهاب الكبد هو التلوث. وأنصحك أن تنتبه جيدًا عند اضطرارك إلى عملية نقل الدم، وحاول ألا تأخذ الدم من شخص لا تعرفه! تعرَّف على فصائل الدم لأصدقائك الذين تطيب سيرتهم وتتطهر بيئتهم، وسجلها في سجلك حتى لا تنساها، وعندما تحتاج إلى النقل -لا قدّر الله- تأخذ منهم الدم براحة بال وطمأنينة قلب. وبالتالي أنصحك أن تتجنب الإكثار من الأطعمة الدسمة، فإنها تعيق عملي، إذ أضطر إلى تخزين الفائض منها.

وكنت قد ذكرت لك بأن الكحول أكبر أعدائي.. وأعرف يقينًا أنك إنسان تجتنب المحرمات، ولكن لا حرج من التذكير. وإني على يقين تام أنك ستعي حكمة تحريم الخمر وعيًا لا يرقى إليه الشك عندما ترى أعمالي ذات الدقة والتوازن. فإياك أن تصدق الأطباء الذين يدّعون فائدة الكحول لأوعية القلب -مثلاً- وغيرها من الأقوال التي لا سند لها ولا فائدة. فلْيضحكوا على غيري. وهل يعرفون كم أعاني من المشقة أثناء تعطيل مفعول غرام واحد من هذه الكحول؟! ليس هذا فحسب، بل حسبهم أن يزوروا المصابين بسرطان الكبد أو التهاب الكبد الوبائي في المشافي ليدركوا فجاعة شرب الخمر. فاعذرني يا عبد الله! فإني لم أتمالك نفسي أمام هذه الادعاءات الباطلة. وليشهد الله أني لا أقول ذلك إلا لمصلحتهم.. كيف لا يرون العجائب التي خلقها الله تبارك وتعالى فيّ، وسخرها لخدمتهم وصحتهم، ويفسدونها في سبيل غرض دنيوي بسيط لا معنى له. أرجو المولى ﷻ أن يعيدهم إلى الرشد والصواب، كما أرجو منك يا عبد الله كذلك، أن تعتني بي جيدًا ولا يخيب ظني بك. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

نكران الذات والمددُ الرباني

كنا تائهين ضائعين مشرَّدين هنا وهناك، فأدركَنا الله برحمته وأبلغنا بفضله وكرمه مواطنَ من الخير والعطاء يتعذر أن نصل إليها بحولنا وقوتنا. إننا نؤمن إيمانا قاطعا أننا نتفيأ في ظلال العناية الربانية. بعد التأكيد على هذه الحقيقة، من المفيد أن أنبه إلى أمور مهمة ينبغي الالتزام بها حتى لا ينقطع التأييد الإلهي والعطاء الرباني الذي لا يفتأ يهطل على رؤوسنا كالغيث في هذه الأيام:

مَحْوُ الذات

ينبغي أن نقنع "أنفسنا" أنه ليس لنا يدٌ في حصول هذا الخير العميم. فالنجاح كل النجاح لطف من الله وفضل من لدنه وإحسان. فإذا آمنّا بذلك فقد جنّبنا أنفسَنا شوائبَ الشرك، وأنجيناها من الأوهام التي تظل النفسُ تَضُخّها في دواخلنا لكي تضخّم أنانيتنا. بل يحسن أن نقول: "في الحقيقة، لو لم أُقحِمْ نفسي في هذا الأمر، لوجد له رجالا خيرا مني في إخلاصهم وصدق تمثيلهم، ولقطعتْ القافلةُ مسافات واسعة أضعافَ ما قطعتْه حتى اليوم. وا أسفاه، فلولا كدورة نفسي لتجلّى المددُ الإلهي وفق صفائه المقدس على الخدمة الإيمانية. وا حسرتاه، فقد ارتطمت تجلياته بفيروسات أنانيتي وتحطمت على ضعفي وسيئاتي. أجل بسببي أنا تعثرنا وتأخرنا عن المواقع التي قصدناها، وابتعدنا عن المراقي التي حلمنا بها". بل ينبغي تكرار هذا السؤال: "يا نفس، كم إنسانا قتلتِ حتى اليوم!؟.. كم إنسانا كان يبحث عن الحقيقة فتعثر بك وفقدها إلى الأبد!؟".

أيها البطل الذي نذر روحه للحقيقة! هذا هو القلق الذي ينبغي أن يمور في أحشائك مورا، ويهز كيانك هزا كي لا تنقطع تجليات الرعاية الربانية. ومن ثم، كلما عظم النجاحُ الذي تم على يديك، بالغْ في نكران ذاتك، وأوغِلْ في محو نفسك، وتذلّلْ أمام الله، وانكسر بين يديه، وأمعِنْ في العبودية له. ذلك أحرى بك كي لا تنسحق تحت أثقال أنانيتك. اغرِسْ هذه الفكرة في روحك، وثبّتْها في قلبك حتى تصبح جزءا من كيانك وبعدا من أبعاد طبيعتك. كان النبي ﷺ يبكي صباح مساء متضرعا ويقول: "يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كلَّه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين". فإن اتخذتَ هذا الدعاء وِردا لك، لا يفارق لسانَك ولا قلبَك، فقد وُقِيتَ من الانسحاق تحت حوافر النفس الجموح.

جعجعة الأنانية

ينبغي أن نعلم يقينا أن الخلل والفشل لا يقع إلا بما كسبت أيدينا، وأن النفس هي العائقُ الأكبر لكل خدمة إيمانية. وما يتم من توفيق وإنجاز، فهو محضُ إكرام منه جلّ وعلا، فالخير كل الخير من الله وحده. أما مقولة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، فلم يقلها إلا "قارون" حينما ظن نفسه مصدر الأرزاق والنعم. وإنها لَعبارة لم يزل كل قارون وفرعون يرددها عبر التاريخ. أما الأنبياء وعلى رأسهم سيد الأنبياء ﷺ فقد كانت كلمتهم واحدة: ﴿لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾(الأعراف:١٨٨). فمن يقلْ: "فعلتُ أنا، أنجزتُ أنا، نجحتُ أنا، لو لم أكن أنا..." فمعناه أنه واقع في مستنقع آسن من التفكير الفرعوني. يقول سيدنا رسول الله ﷺ "لأنْ يَهدي الله بك رجلا واحدا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم". فلو هدى الله ملايين من الناس على يديك، فنسبتَ تلك الهداية إلى نفسك، فقد أحبطتَ عملك، ورميت بنفسك في لَظى النار وحرمتها من النعيم المقيم.

الغَيرة المقدسة

عندما يستقر في قلب المؤمن الشعورُ التامّ بأن الخير كله والتوفيق كله من الله وحده، يأبى إلا أن يكون شغلُه الشاغلُ وهمُّه الدائم هو الحديث عنه سبحانه، والغَيرةَ من كل قول يقال في غيره عز شأنه. يأتي بعض الناس أحيانا فيقول بإسهاب "قرأ عليّ الكتابَ الفلانيَّ كذا عددٌ من الناس..." أو "يشارك في دروسي كذا عددٌ من أصحاب الثقافة العالية..."، بينما الصحيح أن نُسهِب في الحديث

عـن شـؤون الله دائمـا، وأن نكون غيورين فـي ذلك أيما غيـرة. كثيرا ما نجد عاطفة الأبوة والأمومة تسيطر على بعضهـم، فـإذا ما جاء ذكر الأبناء فـي مجلس ما، انتهزوا الفرصة لكي يتحدثوا عن أبنائهم. كذلك نرى من يتحين الفـرص للحديـث عـن مهاراته فـي الكتابـة وبراعته في الخطابة. وهذا سـلوك سـيء لا يليق بإنسـان ناضج يقظٍ أبـدا. فالأحـرى بنا أن نترقب الفرصـة بعد الأخرى لكي نتحدث عن الله سبحانه. فإذا جاء ذكر الوفاء مثلا، ينبغي أن نختـرق الـكلام فنقول "ومن أعظمُ مـن الله وفاء؟! إن الله أوفـى الأوفياء!.." ثم نسترسـل في الحديث عن وفاء الله ﷻ لعبـاده. وإذا مـا تَطرّقَ أحدُهم إلـى مفهوم الحق وإحقاقه لأهله مثلا، علينا أن نسـرع فنقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَـقَّ قَدْرِهِ﴾(الزمر:٦٧)، فقد أخرجَنا مـن العدم ووهبنا لبـاس الوجود، ولم يتركنـا جمادا، بل منحَنا الحياة، ولم يكتـفِ بنفخ الروح في أبداننا، بل كرّمنا ورفعنا إلى مقام الإنسـانية، ثـم شـرّفنا بالإيمان، ولـم ينقطـع فضله عند هـذا الحد، بـل أكرمنا بأن أدخلنا رحـاب خدمة الإيمان والقـرآن". نعـم، علينا أن نؤكد ذلك، ونبـدي غيرة –في هذا الشأن– منقطعة النظير.

فمـا بالنـا نـدور بالحديـث حول هـذا الأمـر أو ذاك الشخص، في حينِ أن هناك واحدا أحدا جديرا بأن تدور كل الأحاديث حوله ليل نهار. بل إذا سمعْنا أحدَهم يقول "لقـد ألقيـتُ كلمة في حفل كذا، فتأثـر الناس من كلامي وسـالت دموعهم، وقالوا عن كلمتي كذا وكذا..." فينبغي أن يبلغ بنا الاستياء إلى حد المرض والتألم فنقول "ما بال هذا الرجل يطيل الحديث عن نفسه، وينسب الخير إليها، في حين أن الله تعالى هو صاحب المواهب والمنن كلها، وهو المستحق الوحيد للحديث عنه".

أُنظرْ حيث أقمتَه

إذا أردتَ أن تعـرف عنـد الله مقامـك، فانظر حيث أقمتَه من نفسك. ما مدى حبك له؟ ما نوعية الصلة التي أقمتها بينـك وبينـه؟ عليـك أن تراقب سـلوكك إزاء هـذا الأمر دائما، وتظل يقظا ومتحفزا باسـتمرار. فإذا كانت علاقتنا به وثيقة متينة، فسـوف نسـتغلّ كل سـانحة للوصول إليه وللحديث عنه، وبالتالي سيكون وحده هو المعروف، هو المذكور، هو المشـكور، وسـوف يخفق قلبنا بمعيته في قيامنا وقعودنا، وسـوف نَرَى أثـره على الكائنات في كل طرفة عين، وسـوف نغلق أبواب تأملاتنا على ما سـواه.

سر التوفيق

إن أعظم وسـيلة لجلـب العون الإلهـي والتوفيق الرباني تأسـيس التوافـق وتحقيـق التوحد بيـن أفـراد المجتمع. فغنيمـة التوفيـق لهـا غُرمُهـا. وغُرمُها هو ترسـيخ الوعي الجماعـي، والحفـاظ على سـر التوافـق وروح الاتفاق، والابتعاد عن كل نزاع وشقاق. فإذا أصبحنا كيانا متوحدا وكلاًّ متوافقا، فسـوف تتنزل علينا من الألطاف ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشـر، وسوف نمتلـك القـدرة على رفع أحمالٍ أثقـلَ من جبل قاف. أما إذا زال التوافـقُ وتبخّـر الاتفـاقُ، ولـم يبق سـوى بضعة رجـال ضعـافٍ من حولنـا، فلن يأتي المـدد الإلهي حتى لـو بذلنـا قصـارى جهودنا. فإننـا إن قطعنا حبـل الاتفاق فيمـا بيننا انتَسـفتْ مناجمُ قوتنا ومنابعُ طاقتنا، وكنا سـببا فـي انقطـاع غُيوث الرحمـة علينا والعون لنـا. لذا، يجب أن نركـز جهودنـا كلهـا لكـي نبقى متماسـكين تماسـك الفولاذ ومشـدودين إلى بعضنا كالبنيان المرصوص. وها هو القرآن يعلن عن مرسـومه الخالد بقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح:١٠)، ومن هنا فإن اللطف والسند الذي ينزل علـى الأفراد لـن يداني حجمَ اللطف والسـند الذي ينزل على الجماعة المتوحدة أبدا، حتى وإن كان هؤلاء الأفراد عمالقـة فـي العلم والعرفـان، جبالا في الزهـد والتقوى، وحيدي أزمانهم في مواهبهم الذاتية وإقبال الناس عليهم وتقربهم من الله جل وعلا. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

أدب

أديب إبراهيم الدباغ*

المجددون الشباب



ك"كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم". (يوسف بن الماجشون)

إن الشبيبة الواعية المستنيرة أشبه ما تكون بشعلة دائمة التوقد في دم الشعوب والأمم، تلتهم عَفَنَ الزمن المتراكم على جمود العقول وشلل الأرواح. فالهزَّات العنيفة العاصفة بكيانات هذه الشعوب وبسكونية عتاقات أفكارها، إنما هو من فعل هذه الشبيبة الملول إذا ما انطلقت من أقفاصها وحبوسها، فلا يَحُول عندئذ بينها وبين ما تريد من تغيير وتجديدِ حدود أو سدود.

فقلوب هؤلاء الشباب تزخر بمعين ثر من انبجاسات الحياة وتفجرات الأفكار. فأفكارهم تتعاقب في رؤوسهم محدثة زخمًا هائلاً يكاد يبلغ حدّ الانفجار، فما لم تتحول هذه الأفكار إلى شواهد حياتية شاخصة ومرجعيات فكرية فاعلة، وقعوا في الإحباط وأصابتهم عدوى الشلل العقلي والسهوم المتبلد.

فمن أجل ذلك، هم في سعي دؤوب وبحثٍ جادٍ للوصول إلى قلب الأمة، ليودعوا هذا القلب كلَّ ما في أرواحهم من أسرار مقدّسة، وبكل ما في عقولهم من أفكار عالية، هذه الأفكار التي لم تجد موضعًا تتنزّل عليه، أسمى من رؤوس هؤلاء الشباب المملوءة بكل ما يمكن للبشرية أن تقدِّس من فكر وتجلَّ من عقل.

فالشباب من أصحاب الرسالات الكبرى في العالم، يملكون من القدرات الإدراكية أكثر بكثير مما تجمّد عليه المجتمع من إدراكات، فهم بعمق بواعثهم الوجدانية والروحية، يشكلون العقل الجوهري المتميز والمختلف عن جسم المجتمع وعقله ووجدانه.

إن هؤلاء الشباب يمثلون "الإنسان الجديد" الذي بدأ بالاستيقاظ، وهو يمسح اليوم عن عينيه بقايا ليل طويل كان قد تغشّاه منذ زمن بعيد. وهذا الإنسان الجديد، ما برح حتى طرح على عقل المجتمع جملة من الأسئلة، حاول أن يحاور بها هذا العقل ويحفز قواه الفكرية والروحية للإجابة عليها. وها هو



إن هؤلاء الشباب يمثلون "الإنسان الجديد" الذي بدأ بالاستيقاظ، وهو يمسح اليوم عن عينيه بقايا ليل طويل كان قد تغشّاه منذ زمن بعيد. فقلوب هؤلاء الشباب تزخر بمعين ثر من انبجاسات الحياة وتفجرات الأفكار.

اليوم يتلمس طريقه بين عشرات الطرق لكي ينهض بمسؤولية الجواب، ويصل في خاتمة المطاف إلى جوهر كل الأسئلة.

وهذا الجوهر يكمن في السؤال الآتي: كيف يمكننا أن نَحُول بين الأرض وبين مَن يريد تدنيسها؟ وبين العالم وبين مَن يريد هلاكه؟ وكيف نمدُّ البشرية بالقوة التي تستطيع أن تحيا بها مبرأةً من الأدناس؟ وبأن نجعلها تنشد الفضيلة في كل ما تأتيه من فعل أو قول أو فكر؟

فالبشرية اليوم تعاني من رعب خرافي مصحوبًا باختلاج معنوي وجسدي، وهي في حالة اضطراب وحشي بلغ أوَجَه وجاوز حدَّه، إنها تحترق بتوحش فكرها وهمجية روحها، إنها تعادي نفسها وتنحر روحها وتأكل جسدها وتشرب دمها، حتى إن الأرض مادت من تحتها واضطربت وثقل عليها الإنسان بأوزاره وآثامه وسفكه للدماء وقتله للأبرياء، وكأنه بهذا الحضيض من السلوك، يريد أن يعلن مجافاته للعقول القوية الزاخرة بالمعاني الجديدة والأفكار البكر، وبهذا يعادي الحقيقة ويتحاشاها ولا يرغب بالتقائها، وحتى عندما يضطر إلى مراجعة رصيده الفكري، لا يفعل ذلك إلا لكونه يرغب بالنجاة من أضرار سلوكه المجافي للإنسانية، لا من السلوك نفسه الذي أودى به إلى هذا الحضيض التعيس.

فما لم ينتشل هذا الإنسان الوحشيُّ السلوكِ روحَه من سجنها السحيق، ويفتح أبواب عقله لمن يملك المداخل لكافة العقول، فلن يستطيع العلو بمداركه إلى آفاق الحقيقة التي تسعى العقول كلها للارتفاع إليها.

إن الكثير من "العتاقة" تفوح رائحة عتاقتها بين ما يسمونه بصفوة المجتمعات، هذه الصفوة التي لم تتعلم -مع الأسف الشديد- كيف تعيش بالجانب الأعلى من وجودها الإنساني، ورضيت بالأدنى من هذا الوجود، فوقعت في خلل معيب؛ حيث اضطربت موازين هذا الوجود، فلم تتكامل وتتناغم عقولها ومشاعرها وغرائزها الجسدية واستشرافاتها الروحية، فعانت من جرّاء ذلك الخلل الشيءَ الكثير من التعاسات والإخفاقات، مما دفعها إلى الانحدار نحو دركات متدنية من همجيات جسدية وروحية وعقلية، وهي تحسب أنها طليعة المجتمع الساعي إلى الرقي والتقدم.

فالشباب المجددون، في قلق دائم لعزوف البعض عن اللحاق بتفوقهم الروحي والإنساني، وعلى الرغم من معرفتهم بأن الإنسان هو صنو الإنسان في سجاياه وفي طبيعة تكوينه الروحي والبيلوجي على حد سواء، غير أنهم لا يلومون الآخرين على هذا التقصير بقدر ما يلومون أنفسهم، إذ يعدُّون أنفسهم مذنبين لكونهم لم يكتشفوا بعدُ اللغة الحوارية التي تمكنهم من الدخول إلى قلوب الآخرين وأرواحهم، وهذه اللغة هي ما يسعى هؤلاء المجددون إلى اكتشافها يومًا بعد يوم. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.



تنسحب أشعة القمر الباهتة من الأشجار المتناثرة على مرمى البصر. يظل النور منتشرًا، يوشح صوت المؤذن السكون، يعلو قويًّا واضحًا، أصوات الديكة تكبر في تناغم. تتقلب في فراشها، أذرع الدفء تحيط جسدها بإغراء، يتسلل الهواء الربيعي من النافذة المفتوحة على الحقل، تتنشقه، يتواطأ مع الدفء. يكمّل المؤذن الأذان، تحرّك شفتيها بالدعاء، تسمع نداء يتصاعد من أعماقها، تختلط رائحته بالرائحة المحيطة بها، تفر بقايا النوم من أهدابها، تحس بانتشاء، تقفز خارجة إلى البئر لتتوضأ، وجدت صاحبتها سبقتها وأنهت وضوءها، بادرتها قائلة بمرح:

- هيا لم يعد متسع من الوقت.

تنفرد بربها في ركعتي الفجر، تنكشف طاقات النور والطهارة في أعماقها، تمسح غبارًا مازال متراكمًا. حين انتهت، وجدت الصفّ متراصًا، كتفا الأم ملتصقتان بابنتيها، تلتحق بهنّ، تكاد تلمس أحاسيس الطمأنينة والسلام بيديها.

تترقرق الكلمات القرآنية جداول، تسقي جفاف الزمن القاسي، تركع، سبوح، قدوس، رب!.. تسجد، سبحان ربي الأعلى. قشعريرة منعشة تسري في كيانها كله، تتبلل الأرض بدموعها. تدعو، تغتسل، ترجو، تحس بنفسها خفيفة، تطير وتطير.

دعتها صاحبتها لقضاء أيام معها في قريتها المطلة على البحر. امتنعت في البداية، قالت لها؛ إنها مشتاقة إلى التلفزيون والسهرات العائلية الليلية التي تطول إلى أن تشرق الشمس، وأنها في حاجة إلى نسيان إحباطها وفشلها في النجاح، وفي الحب وفي المصالحة مع نفسها ومع من حولها، في حاجة إلى الغرق أكثر في محيط عائلتها.

والدها رجل أعمال وتجارة، ويقيم -بين الفترة والأخرى- سهرات يبرم فيها الصفقات برعاية أمها وقطرات أنوثتها التي توزعها على الجميع بالتساوي. في كل سهرة معهما كانت أمها قد علّمتها الرقص، وكانت تطلب منها أن تتفنن فيه كل ليلة معها. في البداية، أحسّت

بالقرف حين تسلطت نظرات الساهرين على جسدها الذي يتلوى كراقصة محترفة، لكن بعد أن ذاقت أول كأس، تعلمت كيف تتجاهلهم، أو إذا أعجبها أحدهم بدأت تعرف كيف تجرجره طول الليلة وراءها.

كانت وحيدة والديها، وكانا يغرقانها في الترف، في الدلال... طلباتها أوامر، أصبحت تأتي بأصحابها إذا أرادت السهر، يحوم الجميع حولها. ومع كل هذا، كانت تحس بالضياع بعدم الأمان خاصة بعد أن سلّمت جسدها لمترف يتصابى، لم تفطن لذلك إلا بعد أن طارت أثر الخمرة من رأسها، أحسّت من بعد بمزيد من القرف والقلق، أرادت أن تبتعد عن هذا الجو بانغماسها في الدراسة الجامعية، إلا أن معظم أصدقائها التحقوا بالكلية نفسها، فانجرفت مع ممارسات أخرى أضافت إلى رصيدها من القلق والقرف والتوتر أضعافًا. سكنت مع صاحبتها الشهر الأخير من هذه السنة الجامعية في الحي الجامعي، بعد أن تشاجرت مع صاحب البيت الذي كانت تقيم فيه وطردها.

إلحاح صاحبتها ومعاملتها الطيبة معها -رغم الاستعلاء الذي واجهتها به حين انتقلت للعيش معها في الغرفة نفسها- حفّزاها على هذه الزيارة. لم تندم، فمنذ أن وطأت قدماها صحن البيت المتواضع، وطالعتها ابتسامة والدة صاحبتها المرحّبة، أحسّت أنها ستمضي أيامًا طيبة. واظبت على الصلاة في أوقاتها مع العائلة الصغيرة، كما واظبت على الجلسات العائلية. بعد صلاة المغرب مباشرة، يجلسون متحلقين حول الطيفور يتسامرون. الأب يحكي عن ذكرياته في مقاومة الاستعمار بافتخار واعتزاز، يذكر أنه رغم حداثة سنه، كان يساعد والده وجده، يقول كل مرة:

- مات والدي شهيدًا، لم يتلق جدي فيه العزاء، قال يوم دفنه: عزائي الوحيد هو خروج الاستعمار. حين بكته أمي، قال لها: بدل البكاء عليه، ارعي ولده واحرصي على تربيته وعلى عدم التفريط في شبر من أرضه.

وكانت الأم تحكي تفاصيل محبّبة عن حياة القرية، عن مواقف حاسمة وقفتها في تربية بناتها. ويدخلون في حوار شيّق ومتشعب إلى أن يسمعوا أذان العشاء، فيتفرق الجميع ليلتقوا مرة أخرى في الصلاة.

كانت تتأمل حياتها الماضية تحت الشجرة الكبيرة المتدلية الأغصان على باحة المنزل الأمامية، ترفرف حولها كلمات صاحبها: "لا تطوي الصفحة قبل تنظيفها".

كانت الحمرة على مرمى البصر تغطي الأفق، والنوارس تحوم فوق البحر الممتد أمامها. تشاهد أفواجًا من الصيادين يتجهون بقواربهم نحو الشاطئ، تصلها أصواتهم الصاخبة، المتعبة. تتناثر الكلمات، الضحكات، النداءات، تصلها المعاني بعيدة متقطعة: "الرزق.. اليوم، الحمد لله، عشرة، تعبت، لن أبيع بأقل".

تتأمل ضوء النهار المنتشر حولها، لم تعرف هذه السكينة وهذا الهدوء من قبل، تهمس بداخلها:"حياة بسيطة لكنها غنية بالقناعة والأمل، أرجو ألا تتشوه تطلعاتهم". تراقب الشمس المتصاعد من البحر، زورق وحيد يتمايل على سطحه، ونورس واقف على مجدافه، ذرات متلألئة تحيل الصورة إلى لوحة رائعة متناغمة، متوحدة مع الكون، السكون المتماوج يضفي عليها صفاء عميقًا...

أحسّت أنها جزء من تلك الواحة تنخرط في تفاصيلها. فطيلة الأيام العشرة التي أمضتها مع صاحبتها في هذه القرية هي، تحاول إعادة ترتيب حياتها، استرجاع الصفاء الطفولي الذي تناثر بين رغبات متمردة أو شهوات مسيطرة. هتفت تناجي ربها في تضرع: "أحمدك يا إلهي إذ أذقتني حلاوة الإيمان بك بعد أن كانت الدنيا قد سدّت أبوابها في وجهي، لَكَم أنت رحيم يا ربي، هيّأت لي سبيل الرجوع إليك من غير حول مني ولا قوة سوى عطفك ورحمتك، فأتمم علي يا رب

هتفت تناجي ربها في تضرع: "أحمدك يا إلهي إذ أذقتني حلاوة الإيمان بك بعد أن كانت الدنيا قد سدّت أبوابها في وجهي، لكم أنت رحيم يا ربي، هيّأت لي سبيل الرجوع إليك من غير حول مني ولا قوة سوى عطفك ورحمتك، فأتمم علي يا رب نعمتك وألهمني الصواب".



نعمتك وألهمني الصواب في كل أعمالي، فما لي سواك من يأخذ بيدي، أعنّي على المضي في طريق رضاك".

كانت الدموع تسيل من عينيها على وجهها تحس بها، تتساقط دافئة في أعماقها، تغسل همومًا وأوجاعًا كانت قد بدأت في التناسل. الكلمات البسيطة ترفرف حولها كفراشات ربيعية تلوّن وجودها الجديد بألوانها نقية مشعة، تتنبه على حركات ضاجة من حولها، أصوات متداخلة تردد عبارات الترحيب. تفاجأت بوالديها يقفان أمامها، تسمرت في مكانها تتطلع نحوهما بذهول: كيف وصلا إلى هذا المكان؟

تقدمت نحوها والدتها مرددة "اشتقنا إليك". تحتضنها، تشعر بدفء أمومتها الغائبة عنها منذ زمن طويل، تضمّها بشوق كما لم تفعل منذ مدة بعيدة، تتشبث بها، تحس بكتفيها العاريتين، يتشنج جسدها، يركبها الحياء من عري والدتها... تتطلع إلى وجه صاحبتها المشرق ابتسامتها الهادئة تقول لها: "هذه بداية الطريق فاصمدي، وهذه مهمتك فاثبتي". تبادلها ابتسامتها، تهمس في أذن والدتها: "وأنا أيضًا اشتقت إليكما"، ثم ترتمي في حضن والدها بعد أن أثبتت الغطاء على رأسها. ■

(*) جامعة عبد الملك السعدي، تطوان / المغرب.

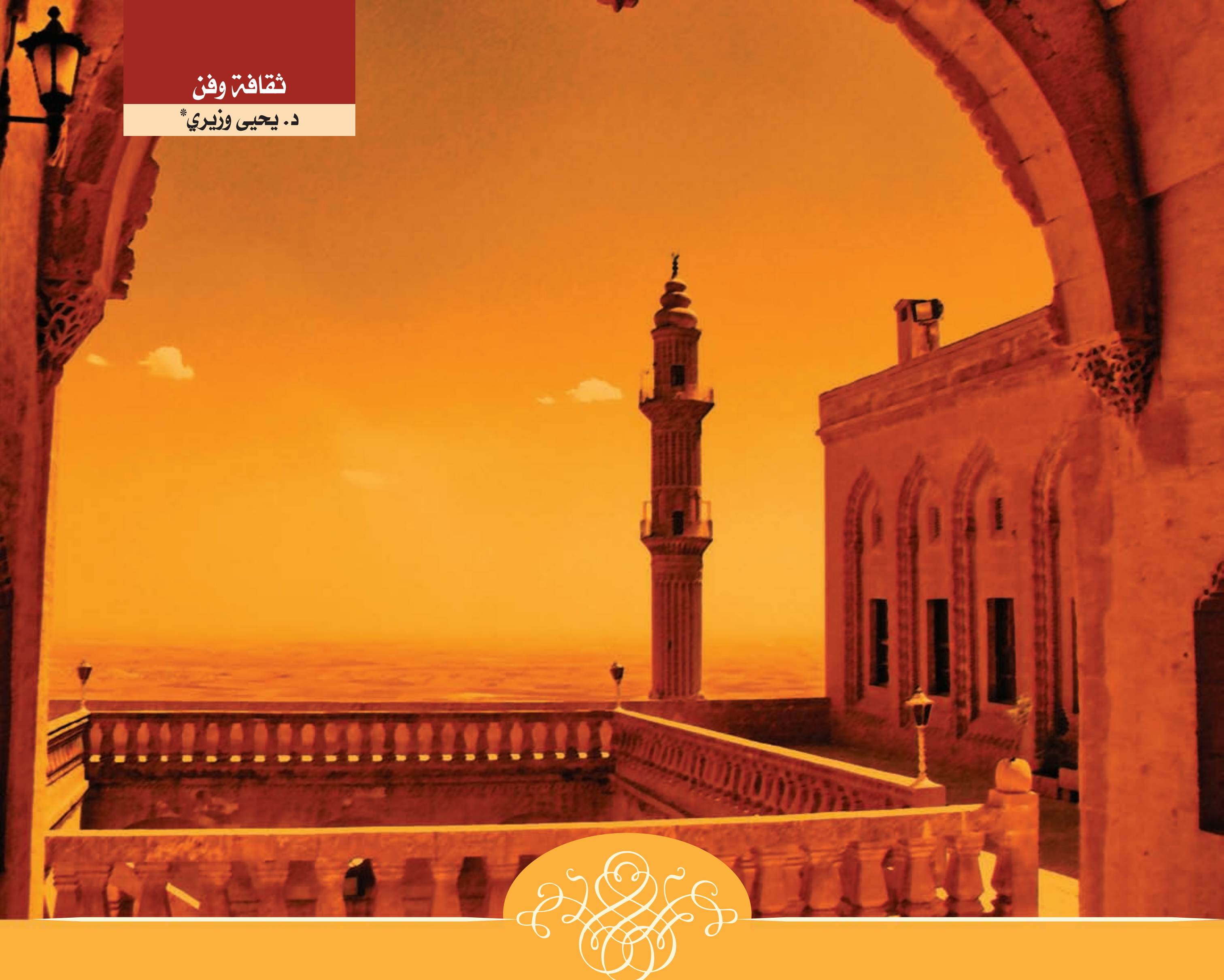
حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

إهداء

هدية العصر، منشورة للكُلِّ،
منسوبة للغاب، والقفر واليَبَابِ،
وحشية بنابٍ، وَسِنٍّ ومخلب،
هلمّوا وانظروا، فكّروا وقدِّروا،
واحْكموا وقرّروا...

* * *

د. يحيى وزيري*



توافق العمران مع الظروف البيئية

يهتم علم التصميم البيئي وهو أحد فروع علم العمارة، بدراسة العناصر البيئية والمناخية التي تؤثر على تصميم المباني والفراغات الخارجية من أجل تهيئة وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان، سواء داخل المباني أو في الفراغات الخارجية في المحيط العمراني.

وبدراسة العديد من الآيات القرآنية، تبين لنا أن القرآن الكريم قد لفت أنظار المسلمين إلى أهمية مراعاة العوامل البيئية في التصميم العمراني والمعماري. لذلك فإن هذا المقال يهدف إلى إبراز المفاهيم التي وردت في بعض الآيات القرآنية ذات الصلة بمجال التصميم البيئي، وهو ما يؤكد على أن مراعاة البعد البيئي هو أحد الضوابط التي يجب مراعاتها في العمران الإسلامي.

إن القرآن الكريم لم يغفل الإشارة إلى أحد أهم أهداف علم التصميم البيئي، التي يسعى المصممون إلى توفيرها في المباني أو الفراغات الخارجية، وهذا الهدف ينحصر في محاولة جعل درجات الحرارة داخل المباني أو في الفراغات الخارجية حولها في حدود معينة لا تقل أو تزيد عنها، وذلك باستخدام أساليب تصميمية معينة.

ونلمح معنى المشار إليه أعلاه في قول الله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾(الإنسان:١٣)، يقول ابن كثير رحمه الله في شرح معنى قوله تعالى: ﴿لاَ يَرَوْنَ

فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾، أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم، بل هو مزاج واحد دائم سرمدي ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾(الكهف:١٠٨)، كما جاء في التفسير الميسر أن المقصود: "لا يرون فيها حر شمس ولا شدة برد"، والزمهرير في اللغة هو شدة البرد.

إن الآية الكريمة السابقة تشير إلى الحالة التي سوف يكون عليها أهل الجنة، فليس عندهم حر مزعج أو برد مؤلم، وهو ما يتطابق مع تعريف مصطلح "الراحة الحرارية" الموجود في علم التصميم البيئي، والذي ينص على أن الراحة الحرارية هي حالة العقل التي يشعر فيها الإنسان بارتياح ورضا فيما يتعلق بالبيئة الحرارية الموجودة فيها. فأي إنسان عادي لا يشعر بالراحة الحرارية إذا زادت أو قلت درجة الحرارة عن حدود معينة، أي إنه لا يشعر بالراحة في درجات الحرارة العالية، كما لايشعر بالراحة أيضًا في حالات البرودة الشديدة.

فإذا كانت درجة حرارة الهواء أعلى من درجة حرارة البشرة، فإن الحرارة المتولدة من الجسم تجد صعوبة في الخروج، وينتج عن ذلك ارتفاع في درجة حرارة البشرة ونشاط الغدد التي تفرز العرق، ويمكن أن يصل معدل إفراز العرق إلى أربع لترات/ساعة، وهو ما يسبب إرهاقًا لايمكن احتماله إلا لفترة قصيرة، أما في حالة انخفاض درجة حرارة البيئة المحيطة عن الحد المناسب، فإن الاستجابة الفسيولوجية الأولى لذلك، انقباض الشعيرات الدموية تحت الجلد، وبالتالي يقل اندفاع الدم إلى البشرة، وهو مايؤدي إلى برودة الشعيرات وخاصة اليدين والقدمين، وتحدث رعشة لا إرادية في حالات البرد الشديد (الزمهرير)، ويزيد معدل الاحتراق إلى مرتين أو ثلاث مرات.[١]

فإذا كانت الجنة تمثل البيئة المثالية بكل ما فيها من متع ونعيم مقيم، فإن الآية الكريمة تضيف متع "الراحة الحرارية" أيضًا، أي لا يُرى في الجنة شدة حر كحر الشمس ولا زمهرير، أي ولا برد مفرط. وفي الوقت نفسه فإن الآية الكريمة تلفت النظر-وبشدة- إلى أن الهدف النهائي هو توفير الراحة لأهل الجنة، وهو ما يلفت نظر المصممين إلى أهمية العمل على توفير هذه الراحة بقدر المستطاع في مباني أهل الأرض تأسيًا ببيئة الجنة المثالية التي هي فوق خيال البشر.

ثم تأتي العديد من الآيات القرآنية الأخرى لتوضح وتبين للبشر كيف يمكن لهم أن يصلوا إلى هذه الغاية، وهي مراعاة العوامل البيئية في التصميم ووسائل تحقيق الراحة الحرارية، سواء في المباني أو الفرغات الخارجية وهو ما نسعى إلى توضيحه في المحاور التالية:

مراعاة اختيار مواقع التجمعات العمرانية

من خلال بحثنا في آيات القرآن الكريم عن ضوابط العمران والبنيان، وجدنا أن إحدى الآيات الكريمة قد أشارت -بطريق غير مباشر- إلى علاقة وتأثير العوامل البيئية في اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(سبأ:١٥).

قال عبد الرحمن بن زيد في تفسير الآية الكريمة السابقة: "إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط، ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملة ولا عقربًا ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل والدواب، فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب، وقيل بلدة طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها".[٢]

إن الآية الكريمة تلفت النظر إلى أهمية اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية من حيث المناخ الجيد والهواء الطيب، كما تلفت النظر إلى علاقة وجود الجنات الأرضية وتأثيرها على تحسين مناخ هذه التجمعات. فلقد أشارت الآية إلى وجود جنتين عن يمينِ وشمالِ مساكنِ بلدة سبأ، وهو مما يلفت نظر المصممين إلى أهمية تواجد الحدائق في التجمعات العمرانية كعنصر جمالي وبيئي في الوقت نفسه، كما يجب ألا نغفل دور إحاطة المساكن عن يمينها وشمالها بالحدائق، لأنه يحميها من الرياح المحملة بالرمال في حالة هبوبها على هذه التجمعات السكنية.

وفي آية كريمة أخرى، يلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى أهمية دراسة الموقع قبل بناء المبنى، وذلك للاستفادة من ظروف البيئة، ونلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾(مريم:١٦)، أي اتخذت من جانب الشرق وهو المكان الذى تشرق الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظّمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها. (حكاه الطبري)

إن عملية تحديد علاقة الأماكن أو الفرغات العمرانية

والمعمارية بالجهات الأصلية لها أهمية قصوى، لأن ذلك سوف يؤثر على الأسلوب الذي تتعرض له هذه الأماكن للإشعاع الشمسي أو الرياح السائدة بكل منطقة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة بطريق غير مباشر حيث أوضحت أن مريم انتبذت مكانًا شرقيًّا من حيث تطلع الأنوار في الصباح، وكما نعرف الآن فإنه ينصح بالتعرض للشمس عند طلوعها قبل أن ترتفع في السماء وتشتد أشعتها لما في هذا التعرض من فوائد صحية جمة.

لقد أراد القرآن الكريم أن ينبه إلى أهمية وعلاقة التجمعات العمرانية أو المباني بالبيئة، سواء كان ذلك في أسلوب اختيار أماكنها أو في علاقتها بالجهات الأصلية، وهي أشياء توضح اهتمام الإسلام بالبُعد البيئي عند إقامة التجمعات العمرانية.

إن القرآن لم يغفل الإشارات إلى أهم أهداف علم التصميم البيئي، التي يسعى المصممون إلى توفيرها في المباني أو الفراغات الخارجية، وهذا الهدف ينحصر في محاولة جعل درجات الحرارة داخل المباني أو في الفراغات الخارجية حولها في حدود معينة لا تقل أو تزيد عنها، ذلك باستخدام أساليب تصميمية معينة.

أهمية الظلال كأحد وسائل تحقيق الراحة الحرارية

سبق أن أشرنا في بداية هذا المبحث إلى أن الهدف الأساسي لعلوم التصميم البيئي، هو تحقيق الراحة الحرارية في المباني أو في الفرغات الخارجية، وتوجد وسائل وإستراتيجيات تصميمية متعددة لتحقيق هذا الهدف، ومن أهم هذه الوسائل وأنجحها توفير الظلال.

وبدراسة الآيات القرآنية التي تحدثت عن الظلال، نجد أن القرآن الكريم ينهج نهجًا رائعًا في لفت النظر إلى أهمية الظلال، ففي البداية نرى أن الله يلفت نظر عباده إلى الظل كظاهرة طبيعية مشاهدة، لها خصائص معينة، فيقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ۞ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾(الفرقان:٤٥-٤٦).

إن الآية الكريمة توضح بعض خصاص الظل في الامتداد والانقباض، وعلاقة هذا بانخفاض الشمس أو ارتفاعها في السماء على مدار اليوم، إن مراد الآية الكريمة لفت الأنظار إلى ظاهرة الظلال كظاهرة طبيعية تستحق التدبر والدراسة.

والظل في اللغة نقيض الضح (بالكسر)، أو هو الفيء، أو هو بالغداة والفيء بالعشي، ومكان ظليل ذو ظل، والظلة شيء كالصفة يستتر به من الحر والبرد، والظلال والمظلة (بالكسر والفتح) الكبير من الأخبية، والظليلة مستنقع الماء في أسفل مسيل الوادي والروضة الكثيرة الحرجات، والظلل؛ الماء تحت الشجر لا تصيبه الشمس. وفي معجم الوجيز؛ الظل هو ضوء الشمس إذا استترت عنك بحاجز، والظليل ذو الظل، ويقال: ظل ظليل أي دائم.

ثم في آية أخرى يوضح القرآن أن الظلال هي إحدى نعم الله ﷻ للبشر، حيث يقول ﷻ: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾(النحل:٨١). أورد الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة ما يلي: "لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل كبيرة، فقد أوضح الله ﷻ أن الظلال إحدى نعمه التي مَنَّ بها على بني البشر، فالله ﷻ قد خلق للبشر الأشجار التي توفر الظلال كما جعل من الجبال مواضع للسكنى كالكهوف -كما في كهف أهل الكهف- يلجأ إليها الإنسان طلبًا للظل والحماية، كما ألهمهم اتخاذ الأبنية حماية لهم من الحر والبرد وطلبًا للظل".

أما الإمام ابن كثير رحمه الله، فقد أورد في تفسير الآية الكريمة ما يلي: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً﴾(النحل:٨١)؛ قال قتادة: يعني الشجر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾(النحل:٨١) أي حصونًا ومعاقل، كما ﴿وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾(النحل:٨١)، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾(النحل:٨١) كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾(النحل:٨١) أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونًا لكم على طاعته ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾(النحل:٨١).

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾(النحل:٨١): هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال

عطاء الخراساني: إنما أنزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾(النحل:٨١) وما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب الجبال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾(النحل:٨٠) وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾(النحل:٨١) وما تقي من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر.

إن نماذج الآيات القرآنية، تؤكد أن القرآن الكريم قد أوضح أهمية أخذ العوامل البيئية في الاعتبار عند تصميم المباني أو على مستوى التجمعات العمرانية، وهو ما يعني أن أخذ البعد البيئي في الاعتبار يعتبر من ضوابط العمران والبنيان التي أكد عليها القرآن الكريم.

ثم تأتي آية كريمة أخرى، لتوضح بأسلوب واضح مباشر أهمية الظلال من ناحية توفير الراحة الحرارية، لأن الظل لايستوى والحر، فيقول جل في علاه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۞ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ﴾(فاطر:١٩-٢١)، إن الآية الكريمة تؤكد وتنبه على حقيقة يلمسها جميع البشر، حيث يشعرون بالفرق الكبير بين الأماكن المظللة والأماكن المعرضة للشمس والحر.

وفي آية قرآنية أخرى يتم التنبيه على الأهمية القصوى للظلال، لدرجة أنها تصبح إحدى المتع التي أعدها الله لعباده الصالحين بالجنة، يقول ﷺ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۞ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۞ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۞ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۞ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾(الواقعة:٢٧-٣١) قال الضحاك والسدي وأبو حرزة في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ لاينقطع، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.[٣]

وفي الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها، فاقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾(الواقعة:٣٠)". وفي الصحيحين أيضًا، من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها".[٤]

ومن اللافت للنظر أن الآية الكريمة قد ربطت ما بين الظل الدائم ووجود الماء الجاري، وهو ما يؤدى إلى زيادة التقليل في درجات الحرارة وهو ما أثبتته العديد من التجارب العلمية الحديثة. لقد أعطت الآية الكريمة نموذجًا مثاليًّا للتصميم البيئي حيث الجمع بين الظلال والماء، وهو ما يفسر حرص المسلمين الأوائل على وجود النوافير والبحيرات المائية داخل أفنية المباني والبيوت الإسلامية، وفي الحدائق الخارجية المحيطة بها، يهدف خفض درجات الحرارة، إلى جانب تحقيق العامل الجمالي أيضًا.

إن حرص القرآن الكريم على لفت الأنظار إلى أهمية الظلال في عمليات التصميم البيئي، له شقان: الأول منهما يؤكد على أهمية العلاقة بين العوامل البيئية والعمران والبنيان الإسلامي، والثاني يوضح أن هذا التأكيد والحرص على أهمية الظلال، يتفق مع القياسات العلمية الحديثة التي توضح أثر توفير الظلال في خفض درجات الحرارة داخل المباني والفراغات الخارجية المكشوفة.

نموذج قرآني يوضح فكرة التصميم البيئي

خلال بحثنا في القرآن الكريم عن الآيات التي تبرز أهمية البعد البيئي في العمران والبنيان، وجدنا أحد الأمثلة المهمة التي توضح أحد جوانب الفكر البيئي في التصميم المعماري، ونقصد هنا تحديدًا الوصف الوارد بسورة الكهف لعلاقة حركة الشمس بالكهف الذي لجأ إليه الفتية المؤمنون، ويصف لنا ﷻ هذه العلاقة في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧).

يقول ابن كثير رحمه الله في شرح الآية الكريمة: "إن هذا دليل على أن باب هذا الكهف المذكور كان من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾، أي يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة ﴿تَزَاوَرُ﴾، أي تميل وذلك

أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾، أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة -يقصد الجنوب- لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالا، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾، أي في متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾(الكهف:١٧) حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم.

ويقول الإمام الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:[٥] "للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان: الأول؛ أنهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحًا واسعًا في ظل جميع نهارهم، ولا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها، لأن الله حجبها عنهم. والثاني: أن باب الكهف كان مفتوحًا جهة الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره".

إن الشاهد من الآية الكريمة السابقة أنها تلفت النظر إلى علاقة حركة الشمس بكهف الفتية المؤمنين، وهي بذلك تلفت النظر بطريقة غير مباشرة إلى أهمية دراسة العلاقة بين توجيه المبنى والإشعاع الشمسي الواصل إليه، لما في ذلك من تأثير كبير على تعرض واجهات المباني من الخارج لهذا الإشعاع على مدار العام، وهو ما يؤثر على فراغات المبنى من الداخل عن طريق دخول الإشعاع الشمسي من فتحات المبنى الخارجية.

لقد أوضح المفسرون -جزاهم الله خيرًا- أهمية توجيه فتحة الكهف، بحيث لا يتعرض مَنْ بداخله للإشعاع الشمسي المباشر، بل يكون في الظل أغلب الوقت، وهذا الهدف هو أحد أهداف عملية التصميم البيئي خاصة في المناطق الحارة والتي تركز على إستراتيجيتين أساسيتين بالنسبة إلى علاقة المبنى بالإشعاع الشمسي وهما: في الصيف: تقليل التعرض للإشعاع الشمسي. وفي الشتاء: العمل على زيادة اكتساب الإشعاع الشمسي.

وفي دراسة ميدانية للمؤلف على أحد الكهوف الموجودة في الأردنّ بمنطقة تسمى "الرقيم"، تقع على بعد حوالي ١٣ كم جنوب شرق العاصمة الأردنية عمان، رجح أن هذا هو الكهف الذي ورد ذكره في سورة الكهف، لوجود العديد من الأدلة التارخية والأثرية إلى جانب إثبات المؤلف لتطابق علاقة حركة الشمس مع هذا الكهف، كما ورد في الآية السابعة عشرة من سورة الكهف، وأن فتحة باب الكهف موجهة تمامًا إلى جهة الجنوب الغربي.

إن نماذج الآيات القرآنية التي أوردناها في هذا المقال، تؤكد أن القرآن الكريم قد أوضح أهمية أخذ العوامل البيئية في الاعتبار عند تصميم المباني أو على مستوى التجمعات العمرانية، وهو ما يعني أن أخذ البعد البيئي في الاعتبار، يعتبر من ضوابط العمران والبنيان التي أكد عليها القرآن الكريم.

إن هذا الضابط الذي ألمح إليه القرآن الكريم، يجب أن يؤخذ في اعتبار القائمين على تعمير المدن والمجتمعات العمرانية في الدول الإسلامية، بحيث لا يكون الاعتماد فقط على الوسائل والتقنيات الحديثة كأجهزة التكييف وما شابه، لما لها من أضرار صحية إلى جانب أعبائها الاقتصادية الكبيرة التي ربما تتفق مع الظروف الحالية لبعض المجتمعات العربية، ولكنها من جانب آخر لا تتفق مع الظروف الاقتصادية السائدة في الكثير من المجتمعات العربية والاسلامية الأخرى. ■

(*) كلية الآثار، جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش

(١) شفيق العوضي الوكيل، ومحمد عبد الله سراج (١٩٨٥): المناخ وعمارة المناطق الحارة، ص:١٦٦، القاهرة.

(٢) انظر تفسير الآية:١٥ من سورة سبأ في "الجامع لأحكام القرآن الكريم"، للإمام القرطبي.

(٣) انظر تفسير الآية:٣٠ من سورة الواقعة في كتاب "تفسير القرآن العظيم"، للإمام الحافظ ابن كثير.

(٤) الإمام ابن قيم الجوزية (بدون تارخ)، "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح"، دار عمر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة، ص:١٣٦.

(٥) انظر تفسير الآية:١٧ من سورة الكهف في كتاب "فتح القدير"، للإمام الشوكاني.

أنس إبراهيم الدغيم*

طواف

في الزّهرِ حينَ ينوسُ الزّهرُ في الشّجَرِ ... وفي البلابلِ تشدو ساعةَ السّحَرِ
وفي حفيفِ وريقاتٍ يمرُّ بها ... من النّسيمِ هفيفٌ رائقُ الخَطرِ
وفي حُميّا كؤوسِ العاشقينَ على ... شفاهِ سُمّارها في لحظةِ السّمرِ
رأيتُ بِدْعَكَ في هذا وذاكَ وذا ... يلوحُ مرتَسمًا في أروعِ الصّورِ
يا نفسُ حجّي إلى مولاكِ راضيةً ... وطوّفي في مجالِ الحبِّ واعتمري

معراج

أرسلتُ في الآفاقِ نورَ بصيرتي ... ينسابُ من فلَكٍ ليجريَ في فَلكْ
ويمرُّ بالآلاءِ مشدوهًا بما ... خطّتْ يداكَ على الصّحائفِ يا ملِكْ
ما حطَّ فكري رحلَهُ في منزلٍ ... إلا وفيهِ إلى لقائك َمُنسَلَكْ
أيقنتُ أنّكَ واحدٌ في ملكِهِ ... يا ربّ ما في القلبِ في ذا الأمرِ شكٌّ
ما عُدتُ من معراجِ قربكَ مرّةً ... إلا وقالَ القلبُ: إنّ الحمدَ لكْ

ارتفاعٌ ودُنُو

ما زالَ في آفاقِ كوني رِعشةٌ ... تجتاحُ بيتَ القلبِ من حينٍ لحينْ
طارتْ بقلبي ذاتَ يومٍ وارتَقَتْ ... لتطوفَ في ملكوتِ ربِّ العالمينْ
ضجّتْ ملائكةُ السّماءِ وأرسلتْ ... تستفهمُ المولى عنِ السّرِّ المبينْ
فأجابها هذا فؤادٌ عاشقٌ ... أعلاهُ عشقي عن هوى ماءٍ وطينْ
يا ربِّ ما زالتْ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ... تُسقى بماءِ ﴿بَلَى﴾ وبالوِردِ اليقينْ

(*) شاعر سوري.

د. سمير بودينار*



الرؤية المعرفية:

من النسبية إلى الحقيقة المركبة

سؤال المعنى والمبنى

كثيرًا ما وجه للحداثة نقد أساسي يتجلى في اعتبارها منظومة تتسم بقدر كبير من الإطلاقية، تشبه في رؤاها وأحكامها -على مستوى الخطاب خاصة- إطلاقية الدين التي يستمدها من إطلاقية مصدره العلوي المتسامي على الإنسان.

فالحداثة كرؤية فلسفية للكون والحياة والطبيعة والإنسان، وللعلاقة بين هذه العناصر، ربما تأسست على فكرة موغلة في القدم، تنتمي إلى عالم الأسطورة اليوناني، حيث يسرق "بروميثيوس" شعلة الحكمة -والمعرفة الخالدة بالتالي- من الآلهة ليضعها في يد الإنسان. تلك الفلسفة البروميثيوسية في الحقيقة، هي التي تجلت في أفكار الحداثة، وامتد ذلك التجلي عبر المراحل التاريخية لفلسفة الحداثة بدءًا من عصر النهضة الأوربي وأعماله الفكرية والأدبية والفنية الكبرى، مرورًا بفلسفة الأنوار، وما أحدثته من حركية في المجتمعات الأوربية وفي طليعتها المجتمع الفرنسي بثورته الملهمة، وصولا إلى التغيرات الأساسية التي حدثت على مستوى الدولة -والمجتمع بالتبع في الحالة الأوربية- خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

فالحداثة وفق هذا السياق، سعي العقل الإنساني لتبوء منزلة الدين في تدبير العالم وضبط علاقات الاجتماع الإنساني، وعليه كان النقد الأساسي لفكرة الحداثة التي انطلقت من هذه السلطة العليا للعقل على الوجود، وبالتالي مركزية الإنسان فيه لقدرة الكائن البشري على التحكم في الكون، إن الحداثة استبدلت بسلطة الإله، سلطة العقل الذي أضحى إلهًا جديدًا، واستعاضت عن إطلاقية الدين

كما حكمت به الكنيسة عبر قرون من الزمن، لتستحدث دينًا عقليًّا، يفصّل العالم وفق متتالية من القيم الفكرية والأحكام الفلسفية الصارمة، فيُحقّب تاريخه بشكل تطوري اعتمادًا على فكرة السيادة النهائية للعقل البشري على الطبيعة والإنسان والمجتمع، دون أي مصدر آخر للمعرفة والرشد، أو سلطة على الإنسان سواه.

هذا النقد الذي ووجهت به الحداثة، تجلي في اتجاهات منتفضة في وجه ذلك القانون الإطار للإنسان والعالم، ولعل أهم تلك الاتجاهات الكثيرة، التي اعتبرت إجمالا اتجاهات فوضوية لا تقدم بديلاً مقنعًا، هو اتجاه "ما بعد الحداثة".

فإذا كانت الحداثة ابنة العقل وسلطته، فإن ما بعد الحداثة محاولة للتحلل من تلك السلطة، وإذا كانت الحداثة تعتبر المعرفة العقلية القاعدة المتينة لقانون التطور البشري، فإن ما بعد الحداثة تكفر بتلك المعرفة، لصالح الذات الإنسانية غير المنضبطة بضوابط معرفة عقلية ناجزة.

باختصار، إذا كانت الحداثة بناءً فكريًّا صارمًا سمته خطاب مطلق، فإن ما بعد الحداثة نسبية مطلقة باعتبار نسبية نتائج تفاعل الذات مع المحيط، وانفعالها به وفعلها فيه، وسمة ذلك التفاعل المستعصي على الثبات، ولأن النسبية في التعامل مع المنجز الفكري، بل مع المعرفة الطبيعية والإبداع نفسه، أمر يصعب -أو ربما يستحيل- تحققه، فقد كان أن سقطت المدرسة البديلة في حالة من العبثية حين أضاعت المعنى لصالح الرؤية الفردية، وأفرغت اللغة من رسالتها التواصلية، وجعلت الحقيقة الواحدة مهما كانت بسيطة حقائق متعددة، مختلفة باختلاف وجهات نظر الناظرين إليها، بل ليست إلا شيئًا متواضعًا على اعتبار أنه حقائق ذاتية هي بعدد أنفاس البشر.

ولعل هذه الجدلية في الفلسفة بين حداثة مؤلهة للعقل على حساب أي مصدر آخر للمعرفة متعال على الإنسان وقادر بالتالي على رسم معالم الاهتداء لمساره في الزمن، وبين ما بعد الحداثة المنتفضة على ذلك التأليه لصالح نسبية مطلقة لأي معرفة، هي المسؤولة عن حالة الحيرة وغياب المعنى وانتصاب الأسئلة المقلقة و"المحيرة"، بعبارة الأستاذ محمد فتح الله كولن.

إن الرؤية المعرفية للأستاذ فتح الله كولن، تساهم في تقديم أسلوب يتجاوز كثيرًا من سلبيات التعامل الجزئي مع الحقيقة، إما انطلاقًا من مصدرها أو من خلال النظر إليها كوحدة صماء تتأبى على التفكيك والتحليل، أو بالاعتماد على أداة وحيدة للمعرفة دون غيرها، للوصول إلى جوهر الحقيقة الماثلة أمام الإنسان وقوانينها الحاكمة.

ولعل أخطر مستويات النظر التي برزت فيها تلك الأسئلة، هي المستوى الوجودي، حيث القضايا الكبرى للإنسان: قضايا المبتدأ والمآل، والجوهر والمعنى والرسالة، والجدوى من الحياة نفسها، والتي تجاذبت المسار العام للعقل الإنساني في أوربا وأمريكا بداية -حيث تجلت تلك الحداثة واتجاهاتها البديلة معًا، في نمط بناء الإنسان والمجتمع- ثم في غيرها من مناطق العالم بالتبع.

لقد كان ذلك الواقع ينادي باستمرار بالحاجة إلى معرفة الحقيقة، غير الخاضعة للتبسيط، سواء ذلك الذي يضيق من مصادر البحث عنها فيحصرها في داخل الإنسان نفسه، مستمدة من حواسه ومنتجة في عقله، فتكون إجابات الإنسان على رغبة البحث عن الحقيقة، وهمة التطلع إليها مسقوفة بحدود عقله المجرد، أو تبسيط الحقيقة بجعلها شيئًا مائعًا لا معالم له ولا هوية، وبالتالي لا أهمية.

إن الحقيقة بطبيعتها ليست بسيطة، بمعنى كونها جوابًا متسرعا على السؤال الإنساني، بل إن سمتها الأساس أنها مركبة، بمعنى العمق والدقة اللذين يحتاجهما إقناع العقل واطمئنان النفس، بحيث لا تقع الحقيقة في نهاية المطاف ضحية طرف كيفما كان، فيختزلها أو يحتكرها.

وإذا كانت الرؤية المعرفية للإنسان هي الصورة المتمثلة للحقيقة التي ينطلق منها لرؤية الواقع وقراءته، أو هي انعكاس للإدراك العقلي للموجد والموجودات على الكون، فإن الرؤية المعرفية للأستاذ محمد فتح الله كولن ربما صح وسمها بأنها رؤية تركيب صورة الحقيقة؛ إذ يرى من يتابع أعماله بعده الدائم عن اختزال الحقيقة في أجوبة بسيطة مهما بلغت درجة وثوقية تلك الحقيقة عنده، وكيفما كان مستوى تمكنه من الأدلة والبراهين العقلية التي تعززها في نظره، ولعل أجلى ما تتضح فيه تلك السمة: منظومته الاستدلالية

المركبة، على كل ما يعتقده من حقائق، وهو ما جعل أفكاره في هذا المجال تتسم بخاصّيتين أساسيتين هما:

أولا: تعليل الحقيقة الكلية من خلال بناء الحقائق الجزئية.

ثانيا: استخلاص الحقيقة بالتوفيق بين المتقابلات.

لقد لامست كتب ومقالات الأستاذ الذي اغترف من مصادر المعرفة الإسلامية الأساسية، سواء مصادر الوحي، أو التراث التفسيري والتأويلي له، أكثر موضوعات الفكر الإسلامي حساسية، بسبب إلحاح هذه الموضوعات في الحضور كقضايا تطبع راهن الإنسان المسلم، وتشكل صورته لدى غيره، أو لطبيعة المجالات الروحية والنفسية والعقلية التي يركز عليها في كتاباته، بوصفها عماد مشروعه في التربية والتعليم والفكر.

غير أنه وهو يلامس تلك الموضوعات بدقة، لم ينجر أبدًا إلى التبسيط في التعامل مع الحقائق إثباتًا أو نفيًا، ولا تخلى عن أسلوبه في بناء صورة الحقيقة لدى قارئه من أجزاء تتناسق وتترابط، معتمدًا على استخراج الحقيقة من بناء الحقائق المتقابلة التي يوفق بينها، فتكون دليلاً مؤكدًا لما يقول وحجة بليغة عليه.

الحقيقة المركبة من بناء أدلة الحقائق الجزئية

تُستمد الرؤية المعرفية لجوهر الحقيقة عند الأستاذ كولن من مصدرين أساسيين أولهما: القراءة الدائبة للوجود والسعي إلى تعرفه واستكناه جوهره، وثانيهما: العقل المسدد بعناصر التوجيه الكامنة في أعماق الإنسان والمتجلية في استجابات الروح لنداء الوحي، وهو في هذا المجال شديد التأثر برؤية الأستاذ بديع الزمان النورسي.

أما عن القراءة الدائبة للوجود، فإن فتح الله كولن يكاد يجمل جوهر العقل في وظيفة النظر المتأمل حين يقول مفسرًا نظرة النورسي في الموضوع: "العقل باعتبار أعماقه الكامنة، في رأي بديع الزمان النورسي والمفكرين المسلمين، عين تقرأ كتاب الكائنات. وأُذُنٌ داخلية منفتحة على اهتزازات واسعة ومتنوعة. فالعقل عنده ليس جزءًا من الطبيعة المادية، بل كينونة منفصلة، هدفها إعادة اكتشاف تلك الطبيعة ودوام قراءة حقائقها، وبقدر أداء العقل هذا الدور، بقدر امتداده من مجال المادة وصولا إلى ما بعد المادة، أو ما يجمله الأستاذ كولن في تعريفه العقل بأنه "جوهر" مجرد عن المادة، لكن ملاصق لها... وامتداد ضوئي من داخل الفيزياء إلى الميتافيزيقا... وهو من أهم الكليات (المدارس) للروح، وأضوأ نور لماهية الإنسان، فارق بين الحق والباطل، وتلك هي القاعدة التي ينبني عليها المصدر الثاني لرؤية كولن المعرفية للحقيقة، أي تسديد العقل بعناصر المعرفة الأخرى، إذ يقرر بداية أن "العقل بمعنى من معانيه هو حارس للروح، باعتباره موجها للإنسان إلى التفكير والإدراك والحجز عن القبائح والحث على المحاسن". أي إن العقل ليس منفصلا عن مصدر القيم، بل هو مستمد منه بما يرقى به ليكون مستأمنًا على تمثل القيم، ومن هنا مهمته في "حراسة الروح" بعبارة الأستاذ كولن، "فهو المنشئ (المكون) بالتساند مع الوحي والإلهام والوجدان، وضده: العقل الضيق غير الملتفت إلى الملاحظات الميتافيزيقية، المنسلخ من العلائق السماوية".

هذه العلاقة بين العقل ومصادر المعرفة الأخرى، هي في الواقع ما يؤسس التآلف في فكر فتح الله كولن، الذي يمنع أي صيغة من صيغ التنافر والتناقض بين الدين والعقل، أو القرآن والمنطق، فهو يرى أن "القرآن إذ يحيل المسائل كلها -ما عدا فيوضات أوامره التعبدية- إلى العقل والمنطق، لا يترك في توجيهاته ونداءاته فراغًا عقليًّا أو قلبيًّا أو روحيًّا البتة". بمعنى أن الرؤية المعرفية التي يؤسسها القرآن، تعتمد على العقل في استنباط الحقائق، وذلك حتى تجيب على جميع أسئلة الإنسان، بتعدد مصادرها عقلاً وروحًا ونفسًا.

غير أن النظر المتدبر والعقل المفكر في رؤية الأستاذ كولن -على أهميتهما- إنما يمثلان الوسائل المؤدية للحقيقة، ومعالم الطريق الموصلة لها، إذ هي في المحصلة نتاج بناء من الحقائق الجزئية المتحصلة من مصدري القلب والعقل معًا، بل إنه يقدم رؤية لمسار التاريخ نفسه، قائمة على ذلك البناء إذ يقول: "إن التقدم والتراجع في التكرر الدائم للتاريخ، هو تناوب بين مراحل الفتور إزاء الوحي وإهمال "العقلي"، ومراحل ضمور التنور السماوي والنشاط العقلي. فمتى ما استضاءت القلوب وتنورت العقول بالأنوار التي ينشرها الأنبياء، وانكمشت الجسمانية والمادة في زاويتها، واستقرت الفيزيائية والميتافيزيقية في مكانهما، وتقدم "العقل السماوي" (بتعبير مولانا جلال الدين الرومي) و"عقل المعاد" (بتعبير الإمام الغزالي) على "عقل المعاش" و"العقل الترابي"، فقد تحقق -حينئذ- تمازج جديد للقلب والعقل".

وعندئذ تولد الحقيقة ببناء نواتها وهي "الميلاد الجديد"

بعبارتـه، أي "ميلاد ربط الوجود بمالكه الحقيقـي فـي وعـي و"إدراك" العصـر مرة أخرى، بتفسـير الوجـود من جديد، وميلاد خلاص الإنسـان من التناقضات الداخلية".

وبناء على الشـروط اللازمة لتلمس الحقيقة في الكون، والتي تمكن الإنسان مـن الاسـتثمار الأمثـل للعقـل، يذكـر الأستاذ كولن وصف رجل الحقيقة بأنه "رجل يستطيع:

١- مجابهة ومقاومة كل الدواهي.

٢- فكـره وعقلـه مـزج فـي بوتقـة واحدة معارف ومفاهيم عصره بالحقيقة الأزلية وصهرهما معا.

٣- ملكاتـه الروحيـة والقلبيـة هي بنفس نكهـة القابليات والملكات، التي سحت من أمثال مولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣)، ويونـس أَمْـرَه (١٢٣٨-١٣٢٠) إلـى بوتقة واحدة انصهرت فيه ونضجت".

ومـن هنـا نـرى كيف بيّـن الأسـتاذ كولن، تلـك الحقيقة المعللة بشـروطها المؤسسـة وخصائصها المميزة وأثرها في التاريخ، ليس في صلاح عالم "إنسـان الحقيقة" فحسـب، بل وحياة من يشـاركه العيش فيه من أبناء الإنسـانية كذلك، لأنه "في النهاية، قلب ناضج عارف، بينما يرى نفسـه إنسانًا وفردًا عاديًـا بين الناس. فإنه يسـتطيع أن ينسـى، بـل يضحي بلذاته وحظوظه من أجل خير وسعادة الآخرين".

ولعل هذه الرؤية التي تبحث في مصدرية الحقيقة ومنهج التوصـل إليهـا، تقدم اقتراحًـا في هذا المسـتوى يجلي تنازع النظـر إليها بين الارتـدادات المختلفة لتأثيـرات العقلانية في أكثـر مـن اتجاه، وهـي الاتجاهات التي تتقاسـم الموقف من الحقيقة ومصدرها، إما على سبيل الاعتقاد الكامل أو الإلغاء الكامل.

إذا كانت الرؤية المعرفية للإنسان هـي الصـورة المتمثّلـة للحقيقة التـي ينطلق منهـا لرؤيـة الواقع وقراءته، أو هي انعكاس للإدراك العقلـي للموجـد والموجـودات على الكون، فـإن الرؤية المعرفية للأسـتاذ محمد فتح الله كولن ربما صح وسـمها بأنها رؤية تركيب صورة الحقيقة.

التوفيق بين المتقابلات مصدرًا لاستخلاص الحقيقة

إذا كان الجدل قد اعتبر -على امتداد قرون من "زمن الغرب"، وعند أكثر من واحد من الفلاسـفة ومؤرخي الأفكار من لدن أفلاطون إلى كارل ماركس مرورًا بهيغل- مبدأ مولدًا للعناصر اللازمـة لتطـور الفكر وبالتالـي الحياة الاجتماعية للإنسـان، وذلك انطلاقًا من وجود مبدأين نقيضين دائمـي التفاعـل، وبالتالـي عاملين على إنتـاج مبدأ ثالـث؛ فإن الرؤيـة المعرفية عنـد فتـح الله كولن، والتي لا تسـتعمل هـذه الأداة التفسـيرية في فهـم الظواهر وتحليلهـا، تعتمـد بالمقابـل -كأسـاس لهـا- على مبدأ متواتـر في كتاباته للنظر إلـى القضايـا والأفـكار، واسـتخلاص الحقائـق الجزئية، وهو مبدأ التوفيق بين القيم والمبادئ المتقابلة في محاولة بناء الحقيقة الكلية أمام قارئه.

ولعـل الأسـتاذ فتـح الله كولن يتخذ ذلـك الأسـلوب مقتربًا لمـا يبحث من قضايا لسببين:

أولهمـا: دقـة الموضوعـات التربويـة والأخلاقيـة التـي يلامسها، والتي يعي أهمية التعاطي معها من أكثر من جانب، تجنبًـا للاختـزال الذي يطبع آراء كثير ممن يستسـهلون النقل غيـر الواعي، للمقـولات والأفكار الجاهـزة، ويعيدونها دون تبصّر ونظر فاحص.

ثانيهما: أن اشتغال كولن الفكري، الذي ينصبّ حول قضايا تتصـل بالتربية الروحية والأخلاقية انطلاقًا من مصدر القرآن، يجعلـه يسـتصحب تجارب الرؤيـة الأحادية للحقيقـة الدينية التي سـقط فيها غيره فيتجنبها، ومن هنا يتيح لقارئه النظر إلى جوهـره الحقيقـة الواحدة من زاويتين مختلفتين، أو يسـاعده فـي تمثـل الحقيقـة الكلية من خـلال التوفيق بيـن الحقيقتين المتقابلتيـن، إذ الحقيقـة كما هـي دومًا، تتأبى على التبسـيط -بالمعنـى المذكور سـالفًا- فيرتبط مسـتوى إدراكها بالقدرة علـى مشـاهدة الصـورة المركبـة بأبعادها وأجزائهـا الكاملة.

ولعـل واحدًا من أبدع تلـك الأمثلة التوفيقية بين الحقائق الجزئيـة المتقابلـة، هو ذلـك الذي يظهر فـي حديث فتح الله كولـن عـن الموت بوصفـه حقيقـة وجودية هامة، تسـتوقف الإنسـان باسـتمرار، حين يتحدث عن "الوجه الآخر للموت" فيرى "أن الموت يعني بالنسبة لنا دومًا، مكانًا ذا أبعاد عديدة، وزمانًا ذا أعماق يتجول فيها الروح".

ثـم يمضـي في تجليـة جوانـب الحقائق الجزئيـة فيه إلى أن يصـل إلـى نتيجة أنـه "خليق بنا -حتى مـن الناحية المادية

والجسدية- ألا نبكي ونحزن، بل نفرح للموت". والأمثلة من هذا الطراز متعددة في كتاباته، بحيث يمكن الوقوف عند بعضها، ومن ذلك حديثه -على سبيل المثال- عن تقابلية القبض والبسط.

يبدأ الأستاذ وفقًا لمنهجه الثابت في منظومته الاستدلالية بوضع المفهومين، بوصفها حقائق جزئية في سياقها ضمن الحقيقة الكلية النهائية فيقول: "القبض والبسط" يدخلان في مدار حياة أي إنسان وفي أي مستوى كان، وبأبعاد مختلفة ويستحوذان عليه، يتعلقان بكل فرد يحيى بشعور مستشعرًا بالحياة".

ثم يعرف المفهومين بتفصيل، ويؤكد بعد ذلك على تلك التقابلية ودورها بالقول: "أما القبض والبسط، فهما معاملة ذات أسرار في الحدود النهائية بعيدًا عن بعض الأسباب الإرادية، فإما يقطعان السبيل على سالك الحق أو يرفعانه ويلحقان به".

وسيرًا على نفس المنهج، يبيّن الأستاذ كولن الجوانب غير المرئية في كلتا الحقيقتين المتقابلتين، فيحدثنا عما "يفيده القبض": "لمن يجولون في ربوع المعرفة، يفيده الخوف للذين ما يزالون في الطريق". كما يبيّن أن "البسط ربما يكون سببًا للانخداع والضياع لقسم من الأرواح الهزيلة، التي لم تتفتح بعدُ لمشاهدة الغيوب، ولم تغير أجهزتها وفق الحياة الأخروية".

ونصل معه إلى أن "القبض الذي يريدنا نتيجة تقصيرنا وغفلاتنا، قد يكون مقدمة لبسط آت، والبسط الذي يؤدي إلى الشطحات والتراخي، ربما يكون سببًا لقسم من أنواع القبض المهلك".

فيرى أن تسليط الضوء على الجانب المظلم من عناصر الفكرة الواحدة، مع التوفيق بين المتقابل من أجزائها، يبني فكرة متجددة عن ذات الحقائق التي يراها العقل وتدركها الروح، لكن بطريقة تمنع التناقض وتؤلف بين الوحدات البسيطة لبناء الحقيقة الواحدة المركبة.

والمنهج الذي يقارب به كولن الحقائق من عالم دقيق العناصر كعالم التربية الروحية، هو نفسه الذي يسير عليه مع غير ذلك من حقائق الإنسان، وحياته الفردية والاجتماعية في تقابلية أخرى مثل تقابلية الفقر والغنى، حين ينبهنا إلى أن "الفقر باب الغنى".

غير أن أحد أهم جوانب هذا المنهج في التعارض مع الحقائق الماثلة أمام العقل، هو استعماله في محاولة الإجابة على الأسئلة التي تبدو مستعصية أمام العقل والمشكلات، التي ترى مستغلقة أمام نظره، من قبيل:

- العلاقة بين المجال الجغرافي لظهور النبوات ومسؤوليات الناس جميعًا في غيره من المجالات تجاه عقيدة تلك النبوات، والعمل بمقتضى رسالتها.
- التوفيق بين الإرادة الكلية للخالق، والإرادة الجزئية للإنسان، التوفيق بين هداية الله ﷻ ومشيئة الإنسان، العلاقة بين منح الدنيا للإنسان ومحبة المانح العلي له... وغير ذلك من القضايا المتصلة بكثير من الحقائق، التي تواجه الإنسان على أكثر من مستوى، والتي يفصل في كل واحدة منها بمنهجه الثابت، بما لا يتسع المجال للتفصيل فيه.

إن الرؤية المعرفية للأستاذ فتح الله كولن -وهي تؤسس لمنهج بناء الحقيقة المركبة من الحقائق الجزئية، وتسعى إلى حل إشكالية العلاقة بين الأجزاء المتقابلة في تلك الحقيقة- تساهم في الواقع في تقديم أسلوب يتجاوز كثيرًا من سلبيات التعامل الجزئي مع الحقيقة، إما انطلاقًا من مصدرها، أو من خلال النظر إليها كوحدة صماء تتأبى على التفكيك والتحليل، أو بالاعتماد على أداة وحيدة للمعرفة دون غيرها، للوصول إلى جوهر الحقيقة الماثلة أمام الإنسان وقوانينها الحاكمة، وربما كانت تلك إحدى أهم خصائص هذه الرؤية المعرفية التي تتجاوز إطلاقية الرؤية المعرفية للحداثة وفلسفتها، دون أن تقع في عبثية النسبية المطلقة، بل هي تأسيس لمنهج يكتسب عمقه وتميزه من النظر إلى الحقيقة دون تبسيط يغفل خاصيتها الخالدة؛ وهي أن كل حقيقة إنما هي -بالضرورة- حقيقة مركبة في مبناها ومعناها على السواء. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

المصادر

(١) أسئلة العصر المحيرة، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٢) ونحن نبني حضارتنا، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٣) الموازين أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٤) ترانيم روح وأشجان قلب، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٥) التلال الزمردية نحو حياة للقلب والروح، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

فـي البدايـة صورةٌ في الذهن ترتسـم، وفكرٌ يتشـكّل، فـإذا انْجذبت إليـه الجماهيـر واسـتوعبت مضامينـه وآمنـت بـه، حوّلتـه بجهودهـا إلـى واقـع حـي، وعاشـته حيـاةً وفكـرًا وسـلوكًا فـي إطـار علمـي يزيـده رسـوخًا وثباتًـا.

* * *

لا خلاف في وجوب الاتّباع وتجنّب الابتداع

إذن فمن أين انبثق الاختلاف؟



لا أعلـم خلافًا بين المسـلمين -من أي الفِـرق والمذاهب كانوا- في أنّ على المسـلم أن يتّبع النـص الوارد في القرآن وصحيح السـنّة، وأن يتجنّب ابتـداع ما لا وجود له في أيٍّ منهما. فهذا إذن هو الجامع المشـترك بين المسـلمين على اختلاف فِرقهـم ومذاهبهم واختلاف عصورهم، وهم متفقون على ذلك.

ففيم تسرّب الخلاف بينهم حتى تحوّلوا إلى مذاهب وفِرقٍ شتى؟ وكيف لم يتأتّ لهذا الجامع المشترك أن يجذبهم إلى صراط واحد وكلمة سواء؟

والجواب أنهم اختلفوا حول تفسير "الاتباع" وضوابطه، كما اختلفوا حول معنى "الابتداع" والمراد به. فهذا هو العامل الذي شرد بهم عن التلاقي والاتحاد تحت سلطان ذلك الجامع المشترك. وأنا أفترض الآن، أنه لا دور للعصبية النفسية ولا للعوامل الخارجية في هذا الأمر.

ولكن فما موجب الاختلاف في فهم معنى الاتّباع ووجوبه، وعهدنا بهذه الكلمة أنّها واضحة المعنى، لا يتراءى فيها موجب لتوهّم أو لبس؟ وما موجب الاختلاف في المعنى المراد بالابتداع، وقد علمنا أنّ الكلمة مأخوذة من الإبداع، والكلّ يعلم معناها؛ إيجاد شيء لم يكن موجودًا من قبل.

ولنُفرد معنى كلٍّ من الاتّباع والابتداع للإجابة عن هذا السؤال ببيان مستقل.

معنى اتباع النص

لا خلاف في أنّا نعني باتباع النص القرآني، التأمل في ألفاظه وجمله وسبك نصوصه ابتغاء الوصول إلى المعاني المرادة منها، وصولا صحيحًا مطابقًا لقصد الشارع وأمره، ثم الالتزام بتلك المعاني المرادة منها والتي تم الوصول إليها.

وهنا يضطر الباحث الذي قرر في نفسه اتباع ما جاء به القرآن، أن يتعرف على القواعد العربية المتّبعة في تفسير النصوص، والتي لا يمكن للرجل العربي أن يسير في فهم شيء من معاني الألفاظ العربية إلا على هديها.

وتنقسم جملة هذه القواعد إلى قسمين: الدلالات،والبيان.

أمّا الدلالات فيقصد بها أصول دلالات الألفاظ على المعاني، إنْ من حيث الكيفية وهي ما يسمّونه الحقيقة والمجاز والمشترك، ودلالة المنطوق والمفهوم... إلخ، وإنْ من حيث التفاوت في درجات القوّة والضعف، وهي المحكم والمفسر والنص والظاهر والخفي والمشكِل والمجمل.

وتتعلق بها الضوابط والأحكام والشرائط التي لابد من معرفتها والأخذ بها عند الاعتماد على هذه الدلالات.

وأمّا البيان فيقصد به ملاحظة الأصول والقواعد العربية المرعية في الحالات التالية:

أ- عند وجود تعارض جزئي يقع بين لفظ ذي دلالة خاصّة، ولفظ آخر ذي دلالة عامة في نطاق الحكم ذاته؛ فإنّ ثمّة قواعد يتم على أساسها التوفيق بين الجملتين المتعارضتين.

بـ- عند وجود تعارض جزئي بين مطلق ومقيّد؛ فإنّ ثمّة قواعد أخرى من شأنها إعادة التوافق بينهما.

جـ- عند ظهور أسباب تستدعي تأويل كلمة ما، وإخراجها عن ظاهر معناها الحقيقي؛ فإنّ لهذه الحالة موازين تعتمد على قواعد عربية محددة يجب الرجوع إليها.

د- عند الوقوف أمام كلمة غامضة الدلالة (مجملة)، لا يستبين المعنى المراد منها إلا بالرجوع إلى القرائن والنصوص الأخرى المتعلقة بالموضوع ذاته.

غير أن هذه القواعد التي ينهض عليها علم دلالات النصوص، والتي ينهض عليها علم بيان معانيها، ليست كلها محل اتفاق من علماء هذا الشأن، أي من علماء اللغة العربية وفقهها. ومن المعلوم أن قواعد تفسير النصوص قواعد حيادية تنبثق من أصول الدلالات اللغوية وفقهها، ومردّها إلى العلماء المتخصصين باللغة العربية. فقد كان لابد إذن، أن تنعكس النقاط الخلافية بين علماء اللغة هنا، على اجتهادات الباحثين فيها من علماء الكلام وعلماء الشريعة الإسلامية.

فقد كان لابد إذن أن ينبثق من الاجتهادات المتخالفة في هذه القواعد لدى علماء الكلام ما يسمى بالفِرق الإسلامية، وكان لابد أن ينبثق من الاجتهادات المتخالفة في هذه القواعد عند علماء الشريعة الإسلامية ما يسمى بالمذاهب الفقهية.

فتلك هي نتيجة الاختلاف في قواعد تفسير النصوص التي ظهرت في تكوّن الفِرق والمذاهب المختلفة.

معنى الابتداع

والحديث عن اختلاف العلماء في البدعة ومعناها، وأثر ذلك في ترسيخ هذه الفِرق في ساحة الوجود الإسلامي، قريب من ذلك. وها أنا أفرده ببعض التفصيل:

يذكر العلماء أكثر من تعريف للبدعة، غير أنّ ثمّة قاسمًا مشتركًا يفرض نفسه في سائر التعاريف التي اختلف فيها الأئمة، فهو محل اتفاق منهم جميعًا. وهو أن نقول: البدعة إقحام شيء في مبادئ الدين الاعتقادية أو أحكامه السلوكية، دون دليل شرعي على ذلك.

إن حرمة البدعة بهذا المعنى الذي هو قاسم مشترك،

مـا ينبغي أن يكـون محـل خـلاف بين المسـلمين أيًّـا كانوا. ولكن المسـلمين فـي واقـع الأمر قـد اختلفـوا، وتكوّنت منهم -بسـبب ذلك- الفِرق والمذاهب المتعـددة. فأين هـو مكمن الخلاف في هذا الموضوع؟ مكمن الخلاف في ذلك يتلخّص في أمرين اثنين:

الأمر الأول: الخلاف الذي من شأنه أن يقـع عنـد محاولـة تطبيـق التعريـف المتّفق عليـه، للبدعـة علـى الوقائـع الجزئيـة. إن من المعلوم أن هذا -كثيرًا مـا- يفتـح آفاق النظـر والنقـاش ويثير وجـوه الاحتمـال، فيقـع الخـلاف فـي التطبيقـات من حيث تـم الاتّفاق على المبـادئ والتعريفات. وهـذا التطبيـق هو ما يسـمّونه فـي علم أصول الفقـه بتحقيق المناط.

من ذلك، البحث في تفاصيل القضاء والقدر والسؤال عن الجبـر والاختيار. فقد وقع الخلاف في الخوض فيها أهو من البدعة أم لا..

كذلـك اسـتخدام علـم الـكلام واصطلاحات الفلاسـفة وقواعد المنطق في الدفاع عن أصول الدين وعقائد الإسلام. فقد وقع خلاف في ذلك أيضًا.

ومـن ذلـك، مناقشـة المبتدعـة فـي بدعهـم ومحاورتهم فـي شـأن الباطل الذي يتمسّـكون به، فهو أيضًـا مما وقع فيه الخلاف.

فهـذه وأمثـال لها، أمـور جزئيـة كانت محـل اجتهاد من العلماء، أينطبق عليها تعريف البدعة المتفق عليه أم لا؟

الأمـر الثانـي: الجهـل الـذي يعانيـه المتعالمـون، وهم موجودون في كل عصر، فالشـأن فيهم أن يذهبوا -في تفسير البدعـة- المذهب الذي يرون، دون أيّ انضباطٍ بقواعد العلم أو اتباع في ذلك لقرار الأئمة:

فكل جديد لم يفعله رسـول الله ﷺ بدعة في نظرهم. إذن تجب محاربتها ومحاربة المتلبّس بها. وعلى ذلك فالملابس الجديدة التي لم يلبسها رسول الله بدعة.

وصيـغ الدعـاء التي لم يـدع بها رسـول الله بدعة، وصيغ الصلاة الجديدة على رسـول الله بدعة، والاجتمـاع على ذكر الله في سـاعة من يـوم معيّـن لم يجلـس فيها رسـول الله للذكر بدعة، واجتماع المسلمين لصلاة العيـد فـي المسـجد الجامـع بـدلا عن المصلى الذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ بدعة... ومن ثم فينبغي أن يكون كل ذلك محرّمًا، لأن كل بدعة ضلالة، ولا يكون التلبّس بما فيه ضلالة إلا محرّمًا.

لا يوجد أيّ إشكال في الاختلافات الاجتهاديـة في تحديد معنى البدعة المحرّمة، ما دام مصـدر الاجتهاد متمثّلاً في نصوص قابلة لأكثر من دلالة ومعنى أو متمثّلاً في إسقاط القواعد المتفق عليها أو التعاريف المجمـع عليهـا علـى الجزئيـات الكثيـرة في مجـال التطبيـق ومـا يسمى بتنقيح المناط.

وقد علمت أن البدعة هي إقحام أمر اعتقادي أو سلوكي في الدين، وهو ليس منـه، ولكن ذكر الله مـن الدين، والدعاء من الدين، والصلاة على رسـول الله من الدين، وصلاة العيدين من الدين... ولعلك تعلم ما ينبغي أن لا يكـون خافيًـا عليـك، من أنّ ترك رسـول الله لفعل ما ليس دليـلا وحده على حرمة فعله، أي فتروكه للأعمال التي تركها ليسـت دليلا وحدها على حرمة فعلها، سواء من ذلك الأمثلة التي ذكرناها وغيرها.

كان هـذا باختصـار، دور العوامل الاجتهادية في تسـرّب الخـلاف إلى فهـم معنى الاتبـاع، وإلى فهم معنـى الابتداع. وقد علمنا أن هذه العوامل تعدّ من أهم أسـباب نشـأة الفِرق والمذاهب المختلفة.

ولكنّـا كنّا -ونحن نتحدث عن هذه العوامل- قد افترضنا أن لا دور للعصبيـة النفسـية، ولا للعوامـل الخارجيـة فـي هـذا الأمر. وقـد افترضنا آنذاك ذلك، كـي لا تتكاثر العوامل ويلتبس بعضها ببعض. فلا جرم أن لهذين العاملين دورًا كبيرًا فـي إيجاد الخلاف، بل في تعميقـه أيضًا في نقاطٍ أو أمورٍ لا موجب للخلاف فيها. ولنقف على بعض النماذج لذلك:

ففي مسـألة الاتباع والابتداع، وجدت نصوص في القرآن تم الاتفاق اللغوي والإجماع الشـرعي على ضرورة إخراجها مـن معانيهـا الحقيقية إلـى المجاز -وهذا هـو التأويل- مثل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطور:٤٨)، فقد تم الإجماع علـى أن كلمـةَ الأعيـن، لا تصلـح أن تكون ظرفًـا للنبي ﷺ، وإنمـا هـي تعني الرعايـة والحماية. ومثل قولـه تعالى: ﴿كُلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨)، فلا يتأتى تفسـير الوجه

بمعناه الحقيقي الذي هو جزء من الذات. إذن لابد من تأويله.

ومع ذلك فإن هناك اليوم، من يصرّ على تفسير هاتين الكلمتين وأمثالهما بالمعنى الحقيقي، ويفسّقون ويبدّعون الأشاعرة والماتريدية لجنوحهم إلى التأويل الذي لا محيد عنه. ومما لا ريب فيه أن العصبية للذات وللمذهب، هي التي تقودهم إلى هذا الشذوذ الذي يخرق الإجماع. والدليل على ذلك، أنهم لا يدركون معنًى سليمًا لفناء ما عدا الوجه من ذات رب العالمين، ولا يدركون معنًى سليمًا لحلول رسول الله في "أعيننا" طبقًا لظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطور:٤٨).

ولكن إذا اقتضت العصبيةُ التأويلَ، فما أيسر أن يفتح أمامها بابه. فمحبة الله لعباده في قوله تعالى:﴿يُحِبُّهُمْ﴾ (المائدة:٥٤)؛ تؤول برضاه عنهم. ومحبتهم له في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُ﴾(المائدة:٥٤)؛ تؤول بطاعتهم له وانقيادهم لأوامره وحكمه. وهذا التأويل منهم خاضع لنقاش طويل.

وبالمقابل، ثمة فِرقٌ أو فرقةٌ أخرى تُعرض عن النص القاطع الذي لا سبيل لتأويله في كتاب الله تعالى، ولا تسمح قواعد اللغة بتفسيره إلا على حقيقته، وتلغيه عن الاعتبار لتستبدل به ما تدعوها إليه العصبية المتحكمة.

من ذلك شهادة كتاب الله تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ كلهم بالخيرية والمكانة الباسقة، والوعد الذي قطعه الله تعالى لهم على ذاته بالنعيم الدائم في جنان الخلد، وذلك في قوله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩)، ولكن العصبية الحاكمة دعت بعض الفِرق إلى الإعراض عن هذه الشهادة الربانية لجميع الصحابة، وإلى تحكيم سلطان الأمزجة بدلا عنها. فكان أن صنّفت الأمزجة صحابة رسول الله بين "مُجتَبَين" حازوا الرضا والقبول، ومنحرفين ضالّين باؤوا بالسوء والعقاب الوبيل، متجاهلين النص الصريح القاطع في كتاب الله ﷻ.

ومن ذلك الخِلعةُ التي أضفاها كتاب الله على زوجات رسول الله، إذ سمّاهنّ جميعًا أمهات للمؤمنين، وذلك في قوله ﷻ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(الأحزاب:٦)، فقد قضت العصبية عند هؤلاء الناس بتصنيف زوجات رسول الله حسب ما تقضي به العصبية والمزاج، فكان أن حُرِمَت عائشة رضي الله عنها من هذه الخلعة التي متّعها بها الله ﷻ، واتهمت بما لا يمكن أن يرضاه أو أن يسكت عليه رسول الله ﷺ، وبما لا يمكن أن يتفق مع النص الصريح القاطع في كتاب الله ﷻ.

أخيرًا، لعل الحصيلة التالية، هي أهم ما يجب الانتهاء إليه والوقوف عنده والأخذ به من هذا البحث:

ليس ثمة أيّ إشكالٍ في الاختلافات الاجتهادية التي سقنا بيانًا لدوافعها وأمثلة لها، حيال فهم معنى اتباع النصوص الجازمة وعدم الخروج عليها.

كما أنه لا يوجد أيّ إشكال في الاختلافات الاجتهادية في تحديد معنى البدعة المحرّمة، ما دام مصدر الاجتهاد متمثلا في نصوص قابلة لأكثر من دلالة ومعنى، أو متمثلا في إسقاط القواعد المتفق عليها أو التعاريف المجمع عليها، على الجزئيات الكثيرة في مجال التطبيق وما يسمى بتنقيح المناط.

ومن ثم فإن الفِرق والمذاهب المنبثقة من هذه الاجتهادات العلمية أو الفقهية المتخالفة، لا تخرج عن دائرة شرعية الاختلاف، ومن ثم لا يمكن أن تفقد هويتها الإسلامية، ولا يجوز أن ينظر إليها على أنها تمارس في اجتهاداتها نوعًا من الشذوذ.

ولكن الأمر يختلف اختلافًا جذريًا، عندما يستدعي الاجتهادُ الجانحُ عن مذهب أهل السنة والجماعة، خروجًا صريحًا على ما ينص عليه القرآن بعبارة لا تحتمل التأويل، أو على ما تواتر من حديث رسول الله ﷺ بشكل يستعصي على التأويل.

ولا نشك في أن العامل الكامن وراء الجنوح عن مذهب أئمة المسلمين، إنما هو العصبية للنفس أو الذات. وربما تحولت إلى عصبية للجماعة، وربما ازداد الأمر خطورة فتسربت جهة أو جهات خارجية إلى الساحة، وتبنّت المواقف العصبية هذه لإيقاد نيران الفتنة ولإيجاد الأسباب الداعية إلى تألّب المسلمين بعضهم على بعض. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

د. عبد السلام الراغب*

الرضى بالموجود، والقبول بالـ"دون"، وعدم التطلّع لتجاوز المحدود، من حِطّة الهمة، ومحدودية النظر، وهمود الذهن، وخمود الإرادة.. فأنّى لأمة أفرادها هذا شأنهم أن يكون لها في الارتقاء نصيب؟!

* * *



الجمود الفكري
وأثره في المشروع النهضوي الإسلامي

يختلف الناس في النشاط العقلي أو الفكري قوةً وضعفًا وفهمًا ووعيًا وقدرةً واستيعابًا، ويتجلى هذا التفاوت بين الناس في طريقة تعاملهم مع الثقافة أو الواقع، وهي لا تخرج عن ثلاثة مستويات تحدد آلية النشاط الفكري ومساره وثماره.

المستوى الأول: وأعني به "التلقي المباشر" عن الآخر واستعارة "قالبه" الحضاري في الفكر والسلوك والحضارة، سواء أكان هذا الآخر ماضيًا موروثًا أو حاضرًا مستوردًا أو واقعًا ملموسًا أو نصًّا مقروءًا أو مسموعًا أو مرئيًّا... وينحصر دور العقل في هذا المستوى الشائع والعام، في "التلقي" من الآخر والتقيد بما يقوله من ثقافة ومعرفة أو عادات وتقاليد.

ويحرص العقل أو الفكر هنا، في التقليد والخضوع لهذا الآخر، وتبنّي ثقافته ومشروعه الحضاري مبرزًا إيجابياته وصوره المشرقة، وتقديم نفسه على أنه صورة طبق الأصل تمامًا عما يطرحه هذا الآخر في ثقافته وفكره وحضارته، والحرص على محاكاته في أقواله وأفعاله ومشاريعه النهضوية. وتتعدى المحاكاة والاستنساخ حدود المعقول في الثقافة والأدب والفن، وطرائق الحياة في المسكن والملبس والمطعم والمشرب.

فالعقل هنا، يتحرك ضمن إطار الثقافة المقروءة والمرئية والمسموعة لتبنيها والتقيد بما فيها، ليكون "العقل المتلقي" أو الفكر المتلقي، صورة منسوخة عن العقل المنتج لهذه الثقافة

بنوعيها العالمة وغير العالمة، الرسمية والاجتماعية على حد سواء، وسواء أكانت هذه الثقافة قديمة أو جديدة، موروثة أو مستوردة. ويلتقي في ذلك دعاة "التغريب" في استنساخ ثقافة الآخر المستوردة، ودعاة المشروع الإسلامي في مستوى التلقي من الثقافة الإسلامية واستنساخ ما فيها، دون وعي للثوابت والمتغيرات فيها. هذا التعامل العقلي في التلقي والنسخ، يفضي إلى التكرار الممجوج والتقليد الأعمى، وتبني الأفكار والآراء دون وعي أو فهم لها، أو دون إدراك للظروف التي أنتجت هذه الأفكار والآراء والمشاريع النهضوية. وبالتالي يغيب العقل وراء الموروث أو المستورد ويحل "الانفعال" محل "العقل"، فتأخذ العاطفة مكان العقل في الترويج لهذا الموروث أو هذا المستورد، ويتم الانفعال والتفاعل مع هذا وذاك في لحظة غياب العقل البصير، فلا ينظر هذا الإنسان المقلّد إلى الثقافة بإطارها الزمني، وأطرها الثابتة والمتحولة، وقربها أو بعدها عن المقاصد الحضارية للأمة، وإنما ينظر إليها من خلال عاطفته المشبوبة ورغبته في محاكاة نموذجه الموروث أو المستورد، فيندفع للدفاع عن أخطائه وسلبياته وكأنه في دفاعه عن تراثه يخوض معركة جهادية بأمل ثوابها عند الله، وغاب عن باله أن هذا التراث الإسلامي هو إنتاج بشري، وأنه ليس نصًّا شرعيًّا لا يجوز أن تخالفه، وكذلك غاب عنه أن الفقه نتاج بشري في قراءة النصوص الشرعية لاستخراج الأحكام منها. فالشريعة ثابتة ربانية، أما الفقه فهو نتاج بشري متغير بتغير الظروف والأزمان والحالات.

المستوى الثاني: هو أعلى من الأول وأرقى، لأن العقل فيه يتجاوز مرحلة التلقي المباشر والفهم التداولي العادي للأمور الثقافية والحضارية، إلى الفهم التأويلي المفسر للدلالات والرموز في الحضارة والثقافة والواقع. وهذا يعني أن العقل يقوم بدورٍ فعالٍ في إنتاج الثقافة أو فهم الواقع من خلال إبداء الرأي، وتقديم رأي مفسر أو داعم لدلالات الثقافة أو رموز الواقع. فهو يعمل بنشاط للاستنطاق والاستكشاف في الثقافة والواقع وليس للتقليد والاستنساخ.

وتتجه حركة العقل هنا إلى مبدع الثقافة، للتعرف على ظروفه الخاصة والعامة المحيطة في إبداعه وإنتاجه الثقافي والحضاري، والطواف في أجوائها ومناخها ومؤثراتها لاستيعابها وفهمها ومعرفتها، من غير رغبة منه في كشف عيوبها وتناقضاتها. وإذا لاح له شيء من العيوب أو القصور حاول ستره وإذابة تناقضاته بالاعتماد على "التأويل" و"التبرير".

وعانى العقل المعاصر من مشكلات التأويل والتبرير، ومحاولات التوفيق والتلفيق في مشاريعه النهضوية المطروحة والمستوردة، التي أحدثت فجوة كبيرة بين الثقافة الرسمية المستوردة، والثقافة المختزنة في عقول الشعوب المسلمة ووجدانها. وارتاح العقل المعاصر أو أراح نفسه من مشاقّ البحث والتفكير، فاسترخى واستقال مكتفيًا بالقالب المستعار في مشروعاته النهضوية، إما قالب مستورد بعيد عن ثقافته ودينه وحضارته، أو قالب موروث بعيد عن واقعه وظروفه وحاجاته ورغباته. وهذه هي الطامة الكبرى التي أصابت العقل أو الفكر المعاصر.

المستوى الثالث: هو الفكر التقويمي، وفيه يرتقي العقل من مرحلة التلقي المباشر ومرحلة التأويل الدلالي إلى مرحلة أعلى هي "التقويم". وبذلك يكون العقل قد أكمل دورته في التلقي والتأويل والتقويم إن كانت حركته متدرجة متسلسلة لا تتوقف عند مرحلة وتتجمد عليها.

فهذه المراحل أو المستويات الثلاثة متداخلة ومتكاملة، حتى تتكون الرؤية الصائبة للثقافة المقروءة أو النص المدروس أو الواقع المرصود، فلابد للعقل أو الفكر أن يكمل عمله السابق في المستوى الثالث في تقويمه وتشخيصه وكشف عيوبه وتناقضاته، بعد عملية تفسيره ومعرفة ما فيه من أفكار وظروف.

هذه المستويات الثلاثة لآلية النشاط الفكري أو العقلي، تصلح معيارًا نقديًّا نحتكم إليه في فهم العقل المعاصر أو الفكر الإسلامي المعاصر، لمعرفة حدود نشاطه، والمستوى الذي يتحرك فيه، وكيفية عمله في كل مستوى من هذه المستويات الثلاثة. وهذا بداية الطريق في تشكيل العقل المسلم على أسس معرفية صحيحة وواضحة، وتخليص الفكر الإسلامي من جموده وتحجره.

ولا شك في أن "أدلجة المعرفة" أو أُحادية "الفكر"، دفعت بالعقل المعاصر إلى أن يحصر نشاطه في مستوى التلقي المباشر من الآخر، رغبة في إخفاء العيوب وتبرير التناقضات، فأدى ذلك إلى ضياعه وتمزقه وفشل المشاريع النهضوية الحديثة. ولو أن النشاط الفكري أو العقلي كان يتحرك بآلياته وأدواته في مناخ سياسي متعدد، لكان عمله لا ينحصر في المستوى الأول في التلقي المباشر، وإنما

تجاوز ذلك إلى شمولية التقويم وجديته فـي وضـع مشـروع نهضوي إسـلامي.

الثبات والتطور في الفكر الإسلامي

أقـام الله ﷻ نظـام الكـون والحياة على نظام "الزوجية" المعـروف لتبقى الحياة مستمرة متجـددة. ولا يخرج أمر الدين أيضًـا عن هذه الثنائية فـي البناء الكوني والإنسـاني لتأميـن بقائـه واسـتمراره؛ إذ نلاحـظ فيـه تـلازم ثنائيـةِ "الثبـات والتجديد فيه". فالثبات في الدين يرجع إلـى مصـدره الإلهـي الأزلـي، ويلازم هـذا الثبات، التطـورُ والتجديدُ المرتبط بالماديات الكسـبية المتفاعلة مع الواقع المتغيـر. وهـذه هـي التـي يطـرأ عليها التطـور والتجديد، أو تبقى في جمـود وخمود بخلاف الدين الذي يتضمن معنى الثبات والاسـتقرار. ويغفل الكثيرون عن معنـى الثبات في طبيعـة الدين، وقد يوصـف بالجمود، بينما ظواهر الجمود لا تنطبق على الدين، وإنما على صور التدين ومواقف الناس من الدين.

وقد شاءت إرادة الله ﷻ أن تكون ثنائية بناء الكون والحياة على نظام الزوجية، أداةً من أدوات التغيير والتجديد في الكون والحياة، لاسـتمرارهما وبقائهما. وثنائيـة الثبات والتطور في الدين أيضًا من أجل الغاية نفسـها، في بقائه حيًّا متجددًا يلبّي حاجات الإنسـان فـي كل العصور وفق المتغيرات السياسـية والاجتماعية والحضارية.

وصـورة التدين تعني التفاعل مع الواقع المتجدد، لإثبات المعنـى الدينـي الأزلـي فيـه وتحقيـق العبودية لله فـي حركة الإنسـان وتوجهاتـه، فتغـدو حركتـه المتفاعلـة مـع مجتمعه وعصـره علـى صراط الله المسـتقيم، أمـا إذا ظـل تديّنه على صـورة واحـدة لا يرتقـي ويتجدد بارتقـاء الحيـاة وتجددها، فإنه سـيرى نفسه في النهاية معزولا عن واقعه وعصره، أسيرًا لصورة التدين المخالفة لعصره وواقعه.

فصـورة التديـن متغيرة، لأنها تتعامل مـع متغيرات الحياة ضمـن مفهـوم الثبات في طبيعة الديـن؛ إذ إن الله ﷻ قد ابتلى الإنسـان بالتفاعل مع ظـروف الحياة المتغيـرة، ليمتحن ثباته فـي توجهه واتجاهه نحو ربه، كما ابتـلاه بالتفاعل مع الكون ليسـتخلص قوانينـه ويفهـم أسـراره، ولـولا هذا التفاعل معه، مـا كانت هذه العلوم المتطورة وهذا التسـخير الكوني للإنسـان. كما امتحن الإنسـان بالرخاء والشـدة علـى الصعيـد الاجتماعـي والاقتصـادي والحضاري، ليرى حركته وسـلوكه وتصرّفـه مع هـذه المتغيرات عليه، ومقدار ثباته على طريقه المستقيم.

> **تاريـخ الإسـلام حافـل بحركـة دائبة مـن التدين تحقـق دينها من مـادة الحياة. فـإذا توقفت حركة المسـلمين المتجددة واسـتكانت إلى صورة ثابتة، تشكل تاريخهم بعيـدًا عن دينهم. وهـذا يعني أن التجديد صـفة ملازمة للحركة، والحركة أساس الإسلام وجوهره، وهـي حركة التوجـه نحو الله ﷻ في شتى صور الحياة.**

والفكـر الإسـلامي فكـر متجـدد فيـه ثوابت الدين، ومتغيـرات "التدين"، فتدور صـورة التدين حول محور الدين الثابت في شتى ميادين الحياة.

مـن هنـا، نلاحـظ أن تجـدد الحياة وتطورها يكمن في هذه الثنائية الأساسية في الكون والحياة والإنسـان. والفكر الإسلامي يخضع أيضًا لهذه الثنائيـة في الدين الثابت والتدين المتغير، وفق الظروف والأوضاع الكسبية المتغيرة.

لـذا نلاحـظ أن "الإيمـان" يزيـد وينقـص، وأن المؤمـن مطالـب أن يحقـق الإيمـان حينًـا بعد حيـن، فيظل فـي نماء وتطور وازدياد في حركة تفاعل مع الظروف والأوضاع. حتى التقـوى التـي هي ذروة الإيمان، تمـر بمراحل متجددة ضمن حركة التفاعل الاجتماعي والشعوري، إذ نلاحظ هذا في قوله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(المائدة:٩٣).

وقد يقال إن هذه مراتب التقوى ومقاماتها وهذا صحيح، ولكن أليست هذه المراتب تمثل حركة تفاعل الفرد مع محيطه الاجتماعي حتى يبلغ هذا المقام في حسـه وشـعوره وفكره.

وإذا تأملنـا حركة "الدين" في قصـص الأنبياء، نلاحظ أن الله ﷻ يختـار رسـوله من بيئته ليحقق هـذا المعنى في تفاعل الدين مع المجتمع.

وهـذا يعني أن المبـادئ الثابتة -في دعوة الأنبياء- واحدة وإن تغيـرت الشـرائع أو تجـددت وفق الأوضـاع المتجددة. وكأن الشـرائع تمثـل صـور الاسـتجابة للأوضـاع المتجددة المعتمدة على دين التوحيد الثابت.

وإذا رجعنا إلى بعض النصوص النبوية، فإنها تؤكد حقيقة

الابتلاء في الحياة من خلال إدراك الناس للعبادة في حالة الرخاء، وإدراكهم لها في حالة الشدة، فتتجدد صورة التدين من "شكر" في حالة الرخاء إلى "صبر" في حالة الشدة.

والرسول ﷺ يخبر في حديث له؛ أن خيرَ الإسلام سيعمّ، ثم يوضح أنه لا يدوم إذ يعقبه شر، ثم يؤول إلى خير آخر أدنى من الخير الأول إذ فيه دخن. فهو يؤكد على أطوار الحياة وتقلّباتها وما تستلزمه من موقف في كل طور؛ موقف تجاه الخير، وموقف تجاه الشر. وهو الامتحان الإلهي لعباده في تجدد صورة التدين الملازمة لتقلّبات الحياة.

بل إن الرسول ﷺ يخبر مبشرًا أن الله ﷻ يقيض للأمة مجددًا لأمر دينها، كلما رآها قد استكانت إلى صورة جامدة من صور التدين في الوجدان والسلوك، كلما داهمتها تحديات جديدة وظلت على سكونها وجمودها، فيهيئ لها المجددَ لأمر دينها، فيحيي وجدانها وينشط فكرها وعقلها في الاجتهاد المتجدد، ويثير فيها روح النهوض بحركة متجددة من صور التدين المواجهة للتحديات.

وتاريخ الإسلام حافل بحركة دائبة من التدين تحقق دينها من مادة الحياة. فإذا توقفت حركة المسلمين المتجددة واستكانت إلى صورة ثابتة، تشكل تاريخهم بعيدًا عن دينهم. وهذا يعني أن التجديد صفة ملازمة للحركة، والحركة أساس الإسلام وجوهره، وهي حركة التوجه نحو الله ﷻ في شتى صور الحياة.

طريق النهضة

١–إحياء المفاهيم الإسلامية: لابد من إحياء المفاهيم الأصلية وبعث الحياة في معاني التدين، حتى يكون الدين حركة تفاعل اجتماعي وحضاري للرقي بالإنسان نحو الخير والتقدم، وربطه بالحياة والسلوك، وإحياء حقائقه ومضامينه لا صوره وأشكاله. وسوف تقف صور"التقليد" أمام حركات التجديد والتطوير، ولكن الدين بعيد عن مظاهر الجمود والتقليد، إذ إن كلمة "الإسلام" المصدرية توحي بالتجدد المستمر، لأن المرء حين أسلم ويسلم فهو في حركة متفاعلة متجددة مع أوضاع الحياة. فهو إذن، في حالة تجدد وحيوية وعطاء، وليس في حالة سكونية جامدة طالما أن حركته ضمن ثوابت الدين وأحكامه. من هنا نلاحظ الآيات تركز على الفعل: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:١١٢)، ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(لقمان:٢٢). لأن حركة التفاعل هي الأصل حتى يبلغ الإنسان ذروة الدين، وهذا ما نلاحظه في نصوص الدين كلها، وأحكامه التي تنقله من طور الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان. ومرتبة الإحسان متجددة بتجدد الشعور والسلوك والأداء، بل إن القرآن الكريم يجعل التجدد شرطًا للنهضة والنجاح بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٩-١٠).

٢–اعتماد المعرفة الإسلامية: في مصادر المعرفة لا يفترق الوحي عن العقل ولا يتصادم معه، لأنهما يرجعان إلى مصدر واحد، ومحال أن نتصور التعارض بينهما وهما يصدران من مشكاة واحدة. إذ الوحي في رسالته الأولى، كان دعوة إلى التفكير والثقافة والعلم وتفجير الطاقات الإنسانية الكامنة في تسخير الكون للإنسان، فهو دعوة حضارية للارتقاء والنهوض من خلال كلمته الأولى: ﴿اقْرَأْ﴾، وملازمة العبادة لكل الأشياء المقروءة وصولا إلى غايتها في العبودية لله ﷻ. وبذلك تتحدد حركة الإنسان بحركة الكون والحياة، فتكون قراءته الكونية والحياتية متجهة في صورة العبودية لله الواحد. وقد جاء الوحي من أجل تقدّم الإنسان وحضارته وتعليمه ما لم يعلم، كما ورد في الآيات الخمس الأولى النازلة من السماء: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

فكأن هذه الرسالة الحضارية للوحي، تنسجم مع دور الإنسان ووظيفته حين اختاره الله خليفة له ومستخلفًا على كونه، لتسخيره وتعميره، ومن خلال حركة التفاعل معه لكسب مادته واستخلاص قوانينه، ووضع مادته المسخرة أداة أو وسيلة لعبادة الله ﷻ، وتحقيق تدين الإنسان من خلال موقفه من الكون وحادثات الحياة المتجددة، التي تتطلب تجديدًا أو تطويرًا يلازم حركة الدين المتفاعلة مع الحياة.

والعقبة الأساسية أمام هذه الحركة الجديدة للوحي هي "ظاهرة الجمود الفكري". من هنا كان هذا التركيز القرآني على إذابة الجمود الفكري والتحجر العقلي له أولوية في الخطاب القرآني، وهذه من مدلولات كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ الأولى التي تهدف إلى إذابة الجمود بفعل القراءة المستمرة في الكون والحياة والإنسان، وهي قراءة شاملة متكاملة ومتفاعلة، لتؤتي ثمارها وفوائدها في فتح الآفاق الكونية، والآفاق العقلية، والآفاق الفكرية والروحية.

ومن متطلبات هذه القراءة الواعية الشاملة، تفتُّح الحواس وفاعليتها لتؤدي وظيفتها الحقّة، وإلا فإن تعطيلها يفضي بانتقال الإنسان من آدميته إلى صورة أخرى مشينة يفقد فيها خصوصيته وتميزه. ومن أين للخطاب الديني أن يحقق غايته في البلاغ والنهوض بالفرد والأمة، في مجتمع موسوم بالجمود الفكري كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩).

فالآيات تؤكد أن تعطيل "الحواس" يعني تعطيل "مصادر المعرفة" التي هي وسيلة النهوض والوثوب والتجدد المستمر مع أوضاع الحياة والظروف، بل إن الآية تعتبر هؤلاء المعطلين لحواسهم المدركة قد اعترتهم الغفلة عن الحقيقة، فلا يمكن للمرء أن يصل إليها إلا من خلال إعمالها من خلال حركة التفاعل مع الكون المحيط، لاستخلاص حقائقه وقوانينه.

هذه "الحركة النصية" في استقبال الحواس للمؤثرات، وإدراكها وتحليلها واستيعابها واتخاذ المواقف المناسبة من الكون والحياة، لا تتم إلا بحركية مقابلة في سلوك الإنسان وتفاعله مع محيطه، حتى لا يكون من الغافلين عن كونه أو خلقه أو عبادته، وهذه نقطة البداية في معالجة "الجمود الفكري".

فإن القرآن الكريم في دعوته إلى التفكير والعقل، حث الإنسان المخاطَب على الاتصال بالكون المحيط به، وكأنه يدعوه إلى الأخذ بمصدري المعرفة الحسي والعقلي بالإضافة إلى الوحي الذي يتكامل معهما ولا يتناقض. وهذه الدعوة إلى الاتصال بالكون لاستكشاف حقائقه التي هي حقائق العلم وقوانينه، هي دعوة مستمرة ومتجددة، لينتقل الإنسان من طور علمي إلى طور عملي وفق حركة تفاعله وقدراته الكسبية، التي تمكّنه من امتلاك المعرفة التي هي حركة متجددة وليست سكونية ثابتة. وملتقى الوحي والحس هو "العقل"، إذ لا يمكن أن يدرَك الوحي إلا بالعقل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(الزخرف:٣). والحس أيضًا لا يدرَك إلا بالعقل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

وبذلك تتكامل مصادر المعرفة في الثقافة الإسلامية، وأعني بذلك الوحي والحواس والعقل. فيكون الوحي مكمّلا لمصدري المعرفة الحسي والعقلي، وبذلك يضع القرآن الأمة على طريق النهضة العلمية، لتأخذ حظها من التقدّم والحضارة والرفاهية وسعادة الإنسان، متطلعة إلى إحياء فكري نهضوي، يستفيد من توجيهات الوحي نحو العلم والعقلانية والتفكير، كما يستفيد من الكون المحيط في حركته، لأنه مجال التسخير والتمكين.

ولابد أن أشير إلى أن هذه النهضة المطلوبة ليست ترفًا، وإنما هي ضرورة لازمة لتحقيق عبادة الله في صور الحياة كلها، فلا تقتصر صورة التدين على جانب منها، وإنما تشملها كلها. وهذه الشمولية التعبدية لا تتحقق إلا من خلال التفاعل مع الواقع للنهوض به. ولكن النهضة المنشودة، لها قوانينها وأصولها، وهي لا تحابي أحدًا لعقيدته أو لدينه، فكل من قام بأصولها أو قوانينها فإنه يصل إلى ثمارها ونتائجها ولو كان غير مسلم.

٣-بناء مجتمع صناعي: علينا أن نميز في مشروع النهضة بين نهضة فكرية ونهضة صناعية. فالفكر له قوانينه الخاصة به في التطور والتجديد عبر العصور والأجيال وفق قانون المدافعة التاريخي: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾(الرعد:١٧). أما النهضة الصناعية فهي محكومة بأطرها المادية ضمن القدرات والإمكانيات والخطط. فمشكلتنا في المشروع النهضوي الإسلامي، أننا نخلط بين ما هو فكري وما هو صناعي مادي.

إن إقامة مجتمع صناعي، يحتاج إلى إرادة سياسية قوية وعقل مخطط متفتح رشيد، وإمكانات مادية وبشرية، وقيم وطنية عالية تضع الوطن والأمة والتاريخ في مقدمة حركتها الواعية وفق مراحل البناء الصناعي من استعداد حضاري، ثم استيعاب لكل المنجزات الحضارية القائمة، ثم مرحلة صيانتها ثم محاكاتها وتقليدها، ثم الإبداع والتجديد فيها.

ونخلص إلى مقوّمات المشروع النهضوي الإسلامي وأعمدته الأساسية في الأصالة والمعاصرة والديموقراطية والتكنولوجيا. وهذه العناصر تقوم على فكر متنوع، متفتح وحياة متجددة متطورة ضمن الثوابت والمتغيرات. ■

(*) جامعة حلب، كلية الآداب والشريعة / سوريا.

د. مجدي سعيد*

على طريق صناعة إنسان النهضة

تتعدد على الساحة العربية المؤسسات التي تساهم في صياغة الإنسان، أو إعادة صياغته في المراحل المختلفة من حياته، من لحظة ميلاده إلى لحظة خفوت نشاطه الاجتماعي أو انتهائه، لكن تظل تلك المؤسسات تعمل كجزر منعزلة، أو كأنها تعيد اختراع العجلة ما لم تتكامل الخبرات، وتتراكم المعارف، وتتحدد المسارات، وحتى نعرف جميعًا الإجابة على السؤال الأكبر: أي إنسان نريد؟ وفي هذا المقال نحاول أن نضع خارطة طريق لحياة الإنسان وجهود صياغته على الطاولة حتى نعيد النظر والتأمل فيها.

البصمة الشخصية

حينما يبدأ الإنسان حياته على الأرض، لا يبدأ تلك الحياة "صفحة بيضاء" كما يقول البعض، وإنما يبدأ صفحة زودت ببرنامج تشغيل تمتزج فيه استعدادات "الفطرة" التي فطر الله الناس عليها، واستعدادات الوراثة القادمة مع الجينات.

وبينما تمر الساعات والأيام، يحدث التفاعل رويدًا رويدًا بين مركب الفطرة أي الوراثة لدى الطفل من جهة، ومركب ثقافة أي سلوكيات الأهل من جهة ثانية (البيئة الاجتماعية أي الثقافية للطفل) والتي يختلط فيها بدوره المكونُ الشخصي للآباء والأمهات، وهو مكون أشبه ببصمة الإصبع لدى كل إنسان، والتي تتفق عناصرها ويختلف منتجها النهائي، وهو مكون يحمل ما يحمل من إيجابيات وسلبيات، كما يختلط فيها المكون الثقافي أي الاجتماعي التراكمي للمحيط من أعراف وعادات وتقاليد للمجتمع خارجة عن عناصر منظومة؛ الطفل والأب والأم، تتبادل معها التأثير والتأثر.

ورويدًا رويدًا ينمو الطفل فيصير صبيًّا فمراهقًا فشابًّا يأخذ من محيطه ويدع، يتأثر وربما يؤثر، فتتكون فيه شيئًا فشيئًا ملامح بصمة شخصية خاصة بأفكارها وتصوراتها وأخلاقها





وسلوكها ونفسيتها.

ولا يلبث ذلك الشباب أن يدخل معترك الحياة دراسة وعملا وزواجًا وتفاعلا ثقافيًا واجتماعيًا مع محيطه، وحينما يرتبط بإنسانة أخرى جاءت ببصمة أخرى، يبدءان معًا في إعادة إنتاج العملية البيولوجية والاجتماعية والثقافية.

هذا هو المسار الذي يسير فيه الإنسان حيًا متفاعلا وديناميكيًا، وليس مسارًا إستاتيكيًا يقطعه كحجر ألقي في الفراغ، وخلال هذا المسار يختار أو لا يختار في بدايات حياته، وإنما ينشأ على أن يدور في مدار أو مدارات من اهتماماته أو من محيطه الأسري أو الاجتماعي الأوسع، فيدور في فلك نفسه أو أسرته أو أصدقائه أو مجتمعه، وفي النهاية خط مساره وخطوط مداراته إلى منتهى في الحياة الدنيا بلحظة الوفاة، وقد يكون الناتج النهائي لذلك المسار وتلك المدارات طيبًا ونافعًا وصالحًا ومصلحًا أو غير ذلك.

الدائرة الأوسع

وخلال مسار الإنسان والذي يبدؤه كقطعة من الصلصال ذات تركيب وخصائص واستعدادات كما قلنا، ويبدأ أول ما يبدأ الأهل في تشكيل تلك القطعة وإنمائها، وذلك من وحي ما لديهم من أفكار وتصورات وأخلاق وسلوكيات، وما لديهم من مهارات اكتسبوها بالتعلم من البيئة والتعلم، أو خلال الدراسة أو غيرها، وهو ما نسميه بالتربية، وقد تقتصر تلك العملية على الأب والأم في الأسرة النووية، وقد يشترك فيها الأهل من الأسرة الممتدة وأحيانًا الجيران.

وفي مرحلة تالية عندما يكبر الطفل بما يسمح له بالاختلاط مع المحيط الاجتماعي، يتصاعد تدخل الأصدقاء ورفقاء الحي والمعلمين والقادة الدينيين أو الاجتماعيين، مع تداخل مؤثرات خارجية من ثقافة وإعلام، كل ذلك يساهم في تشكيل عقل ووجدان ذلك الإنسان.

كما تساهم في تلك المراحل التالية كل من العملية التعليمية والتدريب المنظم وغير المنظم (إن وجد)، إضافة للظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية، أو ما يكون مجمل عناصر البيئة بما فيه من خير وشر أو ظروف مناوئة أو مساعدة في تشكيل الإنسان.

وفي حياتنا العربية، وعلى الرغم من كليات التربية، وأقسام علم النفس، وعلوم الاجتماع والخدمة الاجتماعية، وعلوم الإدارة وغيرها، والتي تُخرج الآلاف من الخريجين والمئات من الدراسات والبحوث التي تشرح الواقع النفسي والاجتماعي والتربوي للإنسان العربي، فإنه لا زال "الإنسان" محور تلك الدراسات، أو ما يمكن أن نسميه بالمنتج النهائي لعمليات صناعة وصياغة الإنسان. لا زال ذلك المنتج لا يتمتع بالسمات المطلوبة التي نرجوها ونرجو منها أن تساهم في تحقيق الإصلاح والنهضة.

سمات الإنسان المنشود

ولعل سبب تلك الحالة التي نحن فيها، هو تفكك أوصال أجزاء عمليات الصياغة والتنشئة، وعدم وجود إستراتيجية عامة متفق عليها لتلك الصياغة تبنى من النهاية للبداية، وتنفذ من البداية للنهاية، ونحن نحاول هنا، أن نضع سمات عامة للإنسان المنشود (نهاية العملية) حتى نستطيع أن نحدد شكل التدخلات التربوية والتعليمية والتدريبية وتوجهاتها، ونصوغ البرامج والمناهج التي تناسبها. ويمكننا أن نقسم تلك السمات إلى مجموعات..

مجموعة السمات الفطرية: وهي التي تتجاوب مع فطرة الإنسان، وتشمل..

• **الوجدان الحر**: حيث إن أصل خلقة الإنسان باعتباره كائنًا مكلفًا ومسؤولا، أن يكون حر الإرادة، حر الاختيار وهو نقيض وجدان العبد أو المستعبد للخوف الداخلي، أو المستعبد للرغبات والأهواء والشهوات، أو المستعبد لغيره من بني الإنسان، حتى ولو كان ذلك الغير هو الأب أو الأم. فالإنسان الحر، هو الإنسان القادر على حمل أمانة التكليف، سواء أكان ذلك التكليف دينيًا أم اجتماعيًا. والوجدان الحر، هو الوجدان المؤمن بالله، لأن الإيمان بالله يعني العبودية له -كقوة غيبية غير قاهرة للإنسان قهرًا ماديًا في اختياراته- في مقابل التحرر من العبودية لما سواه، وهو مقتضى قول القائل: "لا إله إلا الله".

• **العقـل المميـز**: وهـي السـمة الثانية للإنسـان من حيث كونه إنسـانًا يمتلـك القدرة علـى التفكير المنطقي السـليم، ومـن ثم قـادرًا علـى القراءة الصحيحـة للكون والحياة والإنسـان، وقـادرًا من ثـم على التفكيـر والتفكر والتدبـر المؤدي إلى النتائج المنطقية. والحفـاظ علـى ذلـك العقـل المميز يرتبـط بالتربيـة من حيـث كونها تربية لا تتضمن بث الأسـاطير والخرافات المذهبـة للعقـل والمضيعـة مـن ثـم لحريـة الوجـدان، كما يرتبط بسـلوك الإنسـان الـذي يربـى علـى الحفـاظ دائمًا على عقله من أن تغشاه غاشيات الغيبة أو التغييب بمخدر أو مسـكر، سواء أكان ذلك المخدر أي المسـكر المذهب للعقـل ماديًّا أو معنويًّـا، وينتهي العقل المميز بالإنسان إلى اكتساب الحكمة.

مجموعة السمات النفسية والاجتماعية:

• **النفس السـوية**: وهـي النفـس الخالية من التشـوهات الناتجـة عـن عوامـل طبيعيـة أو اجتماعيـة تربويـة، وهي من ثـم النفـس القادرة على قيادة الإنسـان بقوة إلـى أداء وظائفه الاجتماعية في جميع أدوار حياته بكفاءة وفاعلية.

• **الأخلاق المتينة**: وتنقسـم بدورها إلى قسـمين كبيرين: الأخلاق الإنسانية العامة: من أمانة وصدق وشجاعة وعدل... إلـخ. وأخلاق النهضة: كالنظام والنظافة واحترام قيمة الوقت والعمل والتحلي بخلق الشورى والاستشارة... إلخ.

• **السلوكيات والمهارات الاجتماعية المثمرة**: وتشمل قدرة الإنسـان على التواصل الاجتماعي المتزن والتحلي بسـمات الإنسـان المعمـر: ﴿هُـوَ أَنْشَـأَكُمْ مِـنَ الأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هـود:٦١)، ومـا يقتضيه ذلك من علوم ومعارف تكسـب الإنسـان القـدرة على التفاعـل الإيجابي مـع محيطه الطبيعي والاجتماعـي، والتحلـي بسـمات الإنسـان المصلـح: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِـكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(هود:١١٧)... الإنسـان الـذي يغـرس الفسـيلة، ويمنـع خـرق السـفينة، الإنسـان الذي يسـعى للحفـاظ علـى التماسـك الاجتماعي وتفعيله واسـتثماره فـي النهضة والعمران والإصلاح.

> **حينما يبدأ الإنسـان حياته على الأرض، لا يبـدأ تلـك الحياة "صـفحة بيضـاء" كمـا يقول البعـض، وإنما يبـدأ صـفحة زودت ببرنامج تشـغيل تمتزج فيـه اسـتعدادات "الفطـرة" التـي فطـر الله الناس عليهـا، واسـتعدادات الوراثة القادمة مع الجينات.**

ما بين الواقع والمنشود

إذا كان كل مـا سـبق هو خطـوط عريضة للسمات الإنسـانية المنشودة تمثل الأمل المنشـود، أو الرؤية التي نضعها لعمليات صياغة الإنسان، فإن ما بينها وما بين واقع الإنسـان عامة والإنسـان العربـي خاصة، بـون يتسـع ويضيـق هنا أو هنـاك، فكيف نقـرب الفجوة ما بين دائـرة الواقع ودائرة المنشود؟

• تكثيـف دراسـات وبحـوث الواقـع الحـي الديناميكـي الذي نعيشـه، بتكثيف الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية.

• ضـرورة أن تنعكـس نتائج تلك الدراسـات على الواقع ذاته في شـكل برامج وقائية لإعـداد وتأهيل الآباء والأمهات والمربيـن، والمعلميـن والأخصائيين الاجتماعييـن، وتأهيل أزواج المسـتقبل وغيرهـم، وتدريـب المدربيـن فـي تلـك المجالات حتى ينتشـروا فـي الأرض ليقوموا بتغطية جغرافيا الوطـن، وبرامـج للعـلاج والتدريب والاستشـارات النفسـية والاجتماعية تتسـع لتغطي جغرافيا الموضوعات -مشكلات أو احتياجـات- والمراحـل السـنية المختلفـة للإنسـان مـن الأطفال إلى المسنين مرورًا بالمراهقين.

• ضـرورة أن تكـون قبلـة كل تلـك الجهود هي سـمات الإنسـان المنشـود، جذبًا للإنسـان من واقعه المتردي المليء بالمشكلات والاحتياجات النفسية والاجتماعية والتربوية.

كـما أن الحيـاة هـي دائـرة لا تنتهي مـن الإنتـاج وإعادة الإنتـاج، فكذلـك ينبغـي أن تكـون عمليـات المقاربـة تلـك بيـن واقع الإنسـان والإنسـان المنشـود، عملية دائمـة ودائبة وديناميكيـة بالقـدر الـذي يتناسـب مـع التغير الدائـم للزمان والمـكان والأحوال والظروف والملابسـات، دواليك ما بين دراسة وعمل وتقييم واستجلاء لردود الأفعال فإعادة للدراسة وإعادة لتصميم لبرامج العمل وهكذا. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

نور الدين صواش*

سر الشرفات الثلاث

يقف الإنسان مشدوهًا أمام روعة هذا المشهد الباهر. تذكر الروايات أن سنان العظيم -أعظم معماري عرفه التاريخ العثماني- ظل يبحث في مدينة أدِرْنة مدة عامين حتى اختار ربوة مرتفعة تشرف على كافة جنبات المدينة. فبنى عليها جامع السليمية.

لا شك أن جامع السليمية يمثل الذروة في العمارة العثمانية. وقد بناه سنان بين عامي ١٥٦٨-١٥٧٤ بأمر من السلطان سليم الثاني. يتحلى الجامع بقبة واسعة فسيحة وبأربع مآذن سامقة شامخة، كما تتحلى كل مئذنة من هذه المآذن بثلاث شرفات، كلها تحمل سرًّا ومدلولاً في طياتها؛ أما المآذن الأربع فترمز إلى التكبيرات الأربع في الأذان، وأما الاثنتا عشرة شرفة فترمز إلى ترتيب السلطان سليم الثاني بين سلاطين آل عثمان، ويوجد داخل مئذنتين من هذه المآذن الأربع ثلاثة سلالم ينتهي السلم الأول لكل منها إلى الشرفة الثالثة، والسلم الثاني إلى الشرفة الثانية والثالثة، والسلم الثالث إلى الشرفة الأولى والثالثة، وبذلك استطاع سنان أن يمكّن المؤذنين من الصعود إلى الشرفات الثلاث دون أن يرى أحدهم الآخر. وقد أدهشت هذه الصنعة المتقنة الرائعة الكثير من الباحثين والمعماريين وعلماء الآثار في أرجاء المعمورة؛ إذ جمع سنان السلالم الثلاثة في دائرة يبلغ قطرها مترين فقط، مما يدل على إبداعه الفني وخبرته الواسعة في تخطيط البناء وجودة الصنعة والإتقان. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

نور الدين صواش*

حيوانات تطبّب نفسها

لـو تسـمّم أحدنـا أو أصابـه مرض فمـاذا يفعل يـا ترى؟ يذهـب إلـى الطبيـب طبعًا.. ولكن هـل فكّـرتَ يومًا -وأنت تشـاهد الحيوانات في الطبيعة- كيف تعالج الحيوانات نفسها وتقيها من الأمراض؟

نعـم، إن الحيوانـات تعـرف كيـف تعالـج أمراضهـا أو جروحها أو كسورها بطريقة تشبه الطرق التي نلجأ إليها نحن البشـر، أي إنهـا تتمتع بعلم كامل فـي معالجة أمراضها ودون الحصـول علـى أيـة دورة تدريبية أو تعليميـة وإن كانت دون الإنسان في عقلها وإدراكها. وإليك بعض الأمثلة...

هنـاك بعـض الحيوانات -كالظبية والغـزلان- تتمدد على الأتربـة الغنيـة بالطحالـب عنـد إصابتهـا كي يلتحـم جرحها ويندمـل عالمة باحتـواء الطحالب على مواد غنية بالمضادات الحيوية.

وتلجـأ أخـرى إلـى الاسـتحمام للوقايـة مـن الطفيليات والأمـراض؛ فمـن عـادة الذئاب -مثـلاً- الاسـتحمام بالمياه الكبريتيه الدافئة إذا ما توفرت.

وإذا مـا أصيبـت الشـمبانزي بجروح، بـادرت إلى إيقاف النزيـف بوضع يدهـا على الجرح وتغطيتها بورق الحشـائش والأشجار.

وتقوم الدّببة بنبش الأرض لإخراج جذور نبات السرخس حـال إصابتها بإسـهال أو سـوء هضـم، وقد أثبـت الباحثون أن هـذه النبتـة تفيـد فـي علاج كثيـر من الأمـراض كالصداع والروماتيزم ونزلات البرد...

هـذا وقـد شـوهدت الذئـاب أو الـكلاب أو القطط وهي تمضـغ التريـاق -وهو اللـوف العطري أو لـوف الثعبان- إذا تعرضت إلى لدغة حية أو ثعبان... وغير هذا من الأمثلة كثير...

فمـا أعظم القـدرة التي ألهمـت هذه الحيوانـات لتهتدي إلـى طريقها! وما أجمل الكريم الذي منّ على مخلوقاته بهذه النعـم الخارقـة! وما أرحـم الطبيب الذي وصـف لمخلوقاته هذه الوصفات الطبية لتستخدمها في شفائها! ■

(*) كاتب وباحث تركي.



مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
مربع ٤٨ رقم ٣١ أركاويت – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 991 367 91 86

JORDAN
GSM: +962 776 113862

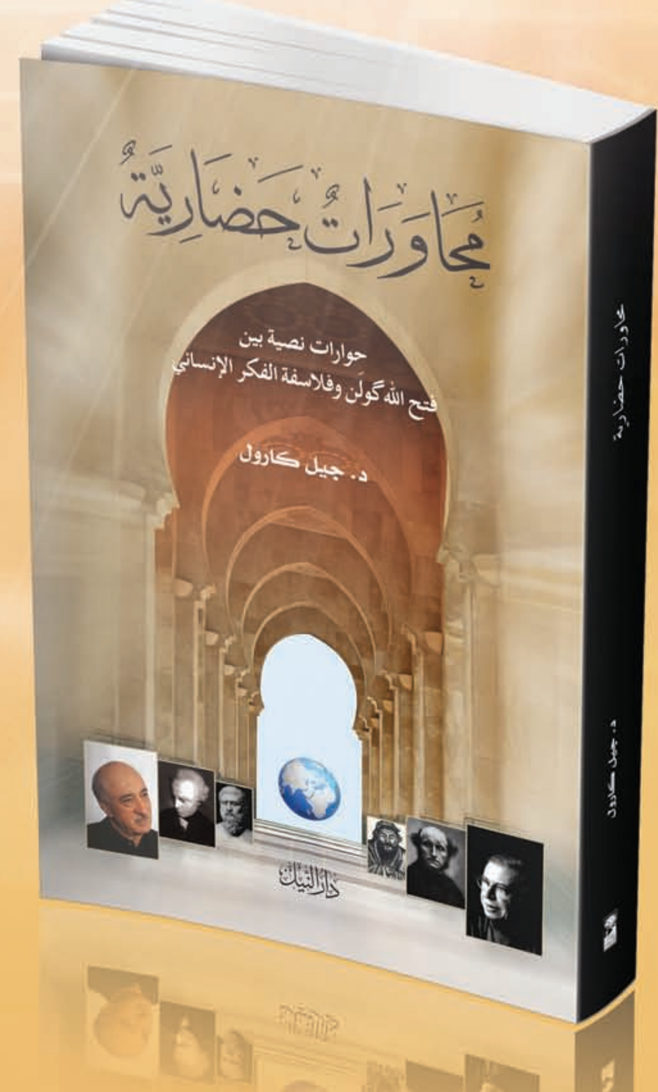
UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

مُحَاوَرَاتٌ حَضَارِيَّةٌ

حوارات نصية بين
فتح الله كولَن وفلاسفة الفكر الإنساني
د. جيل كارول



- مقاربات فكرية بين "كولن" وعمالقة الفكر الإنساني عبر التاريخ.
- مفهوم "الحرية" عند "كولن" وعند رواد الحرية المعاصرين.
- المردود الأخلاقي للتفسير الروحي للكون عند "كولن".
- التجوهر الإيماني في ذات الإنسان ومردود ذلك على حياة البشرية.
- الحوار من أجل سلام يعمُّ البشرية قاطبة كما يفهمه "كولن".



حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
شجرة الآمال
كم حلمتُ وتأمَّلْتُ...
من رحم الصحراء، شجرة شَمَّاء،
تنبت وتنمو ثم تعلو وتسمو،
والعناية "الماورائية" من السماء تنزلت...
حين حان وقتها وأزف زمانها،
فإذا الأفئدة خَفَّاقة، طروبة مشتاقة،
ومن اليأس خرجت، وإلى الآمال توجهت!..
* * *
تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار
ISSN 1306-1879
9 771306 187009 24
www.hiramagazine.com